دلائلُ التوثيق المبكّر للسُنة والحَديث

مقدمة

إنَّ «السُّنَّةَ النبويَّةَ» ومعينَها الذي لا ينضب والمتمثل في «الحديث» الذي يُعَدُّ «مصدراً» ثانياً لا غنى عنه في التشريع الإسلامي تشغلُ حيزاً هاماً في النظام الديني للإسلام.

وعلى الرغم من أن كلا من «السنة» و«الحديث» تشيرانِ بصفة عامة إلى تعاليم النبي ﷺ فهما يبدوان مصطلحين مترادفيْن، على الرغم من تباين دلالتهما الأدبية والاصطلاحية، وهما يحملان معانٍ مختلفة، وتبين دراسة علم دلالة الألفاظ بالنسبة لهذه المصطلحات أنه في البداية كان هناك عدم ثباتٍ في دلالتهما العلمية، وفي فترة من الفترات استخدما كمصطلحين[1] قابلين للتبادل، وفي فترات أخرى حَمَلا معانٍ مختلفة، وبمرور الأيام اكتسبا معانٍ ثابتة، وتم تعريفهما تعريفاً محدداً وأصبح لكل مصطلح خاصية تميزه.

وقد خَصَّصَ المؤلف الجزء الأول من هذه الدراسة { دراسة مقارنة في الفصل الأول والثاني } للمصطلحين، وخَصَّصَ «الفصل الأول» لدراسة أصل المصطلح، تاريخ تطور مفهوم مصطلح السنة، ومعانيه المختلفة، ودراسة فاحصة للسنن، مثل «سنة القبيلة»، «السنة الإلهية»، «السنة النبوية»، «السنة المحلية»، «السنة الإسلامية»، «السنة الشرعية»، وكافة هذه السنن تم مناقشتها وتمحيصها.

وخصَّصَ «الفصل الثاني» للبحث في علم دلالة الألفاظ بالنسبة للحديث. ومحاولته هذه تم توضيحها من خلال صور توضيحية كثيرة تبين أنَّ السُّنَّةَ والحديث تم استخدامها بمعانٍ متعددة في فجر الإسلام، وفي هذا المجال فقد تمَّ مناقشة كثير من المصطلحات الأخرى مثل.. «العلم»، و«الأثر»، و«الحكم»، و«الخبر»، لتوضيح مدى بُعْدِها عن الحديث، أوْ صِلتِها به، وبالتالي تداخلها مع مصطلح «الحديث».

والأهم من تحليل الأصول اللفظية لمصطلحيْ الحديث والسنة، الاستفسار عن الحفاظ عليهما في شكل مكتوب في الحقبة الإسلامية الأولى، فعلى الرغم من أن الاعتقادَ الغالب بأنَّ سنن النبي ﷺ كانت تُحفظ بالذاكرة في فجر الإسلام، فإنَّ القضية التي لا تزال

---

(1) ينظر الفصلان: الأول والثاني من هذا الكتاب.

قابلة للمناقشة هي ما إذا كان «الحديث» في هذه الفترة قد تم تسجيل صحيحه وضعيفه، ولأهمية هذه القضية فقد خصص المؤلف الجزء الثاني من هذه الدراسة لمناقشة ذلك.

إن هذا الجزء يبدأ بمناقشة وضع «الكتابة» عموماً قبل الإسلام، وفي فجر الإسلام، ثم يعرّج إلى مسألة كتابة الحديث بصفة خاصة، وفي هذا المعنى، فإنّ كثيراً من التقارير المتضاربة المنسوبة إلى النبي ﷺ فيما يتعلق بالنهي أو الرخصة بتدوين الحديث قد تمت مراجعتها بعناية، وتم فحصها بموضوعية (الفصل الثالث) وأُتْبِعَ هذا بمناقشةٍ عن الغَرَض من وراء تأخيرِ تسجيل الحديث، ولهذا الغرض خَصَّصَ المؤلف فصلاً كاملاً.

وفي هذا الإطار فإن كثيراً من المصطلحات الفنية مثل «تدوين»، «تصنيف»، «أخبرنا»، «حدثنا»، «عن»..... الخ، وكثيراً من البيانات عن أحاديث فجر الإسلام، والتي كانت عُرْضَةً لتفسيرات مختلفة والتي كانت مسؤولة عن أسباب نظرية تأخر تدوين الحديث قد تمت مناقشتها مناقشة عادلة ومفصلة في (الفصل الرابع).

وبناءً على النتائج التي توصلنا إليها في الفصلين الثالث، والرابع؛ فقد جرت محاولة للتحقق من الفترة التي بدأت فيها أحاديث النبي ﷺ من التسجيل في صحف وفي مجموعات.

وفي الواقع أنه في حال عدم توافر سجلات مكتوبة موثقة للفترة الأولى من الإسلام، والتي تَرْجِعُ إلى عوامل طبيعية مختلفة، أو لأسباب أخرى لا يمكن أن تعيش حتى يومنا هذا، فمن الصعب جداً أن نقول بثقة ما إذا كانت الأحاديث قد تمَّ حِفْظُها في فجر الإسلام أم لا، والمصدر الوحيد المتوفر والذي يمكن من خلاله الحصول على هذه المعلومات هي التقارير والتي بدورها يمكن الحصول عليها من المصادر الأولية التي تشير إلى سجلات مكتوبة في هذه الفترة، وبهذه الطريقة فإنَّ الشهادة بوجود هذه المجموعة من الأحاديث النبوية المكتوبة في الفترة الأولى من الإسلام ليست في كل الأحوال سجلات لأحاديث مكتوبة بأصولها، ولكنها تقارير عن هذه السجلات، ومع هذا فإنَّ معظم هذه التقارير ثبت صدقها، إما من خلال اكتشاف بعض الوثائق الأولية، أو دلائل ثانوية أخرى، وعلى أي حال فإنَّ النظرة المتعمقة في هذا المعين الذي لا ينضب للمصادر الأولى يلقي الضوء على مجموعة من الأحاديث لهذه الفترة التي هي محل دراستنا.

أما بالنسبة للمجموعة المكتوبة والتي نختتم بها هذه الدراسة فقد خصص لها (الفصل الخامس). وفي حين تكون بؤرة الاهتمام مركزة على الأنشطة الأدبية لعلماء الحديث الأوائل، فإن مقدمة هذا الفصل اهتمت بمعاني واستخدامات الأوعية المختلفة للحديث مثل «الكتاب»، «النسخة» «الجزء»..... الخ.

وفي تناولنا لهذه السجلات المبدئية فنحن نقتصر على الفترة التي تبدأ من عصر الرسول ﷺ حتى عصر الزهري (م = 124) وما تلاها مباشرة. أما السبب وراء اختيارنا العشوائي للنشاط الأدبي لعلماء الحديث حتى عصر الزهري فذلك لأن فترة ما بعد الزهري معروفة معرفة جيدة. إن التسجيلات الوحيدة المكتوبة للقرن الأول بعد الهجرة هي التي لا تزال غامضة، ومن ثمَّ فهي في حاجة إلى تحقيق وبحث.

وفي النهاية، يجب أن نشير إلى أنَّ قائمة العلماء التي ذكرت مجموعة أحاديثهم في الفصل الأخير هم إلى حدٍّ ما مجموعة مختارة ولا تشمل كل العلماء.

* * *

القسم الأول
دلالة السنة والحديث

الفصل الأول: دلالات السُنَّة

1 ـ الدلالة اللفظية لكلمة «سُنَّة»

2 ـ معنى السُنَّة

أ ـ المعنى العملي إجمالاً أو الممارسة العملية بصفة عامة

ب ـ القوانين العرفية

جـ ـ البدعة

3 ـ أنواع السُنَّة

أ ـ سُنَّة القبيلة

ب ـ سُنَّة الله

جـ ـ سنة النبي

د ـ السنة المحلية

هـ ـ سنة المجتمع والسنة الإسلامية

و ـ السنة التشريعية

الفصل الثاني: دراسة دلالات لفظ الحديث

1 ـ المعنى الحرفي للحديث

أ ـ جديد أو حديث

ب ـ الحديث أو فن السرد

2 ـ المعنى الاصطلاحي للحديث

3 ـ العلاقة بين الحديث والسنة

4 ـ مفهوم العلم في علاقته بالحديث

أ ـ المعرفة بصفة عامة

ب ـ المعرفة التاريخية

جـ ـ المعرفة الدينية والشرعية

د ـ العلم يعني الحديث

5 ـ الأثر والحديث

6 ـ الحكمة والحديث

7 ـ الفقه والحديث

8 ـ المصطلحات الأخرى المتعلقة بالحديث

أ ـ الخبر

ب ـ الرأي

جـ ـ المثل

القسم الأول
دلالة السنة والحديث

« تمهيد »

إذا استعرضنا تاريخ الأدب الإسلامي بمفهومه الواسع فسنجد أن المرءَ غالباً ما يخلط بين مصطلحي: «السنة»، و«الحديث». ورغم أن هذين المصطلحين قد اكتسبا حالياً معنى ثابتاً، وحُدِّدَ معناهما تحديداً واضحاً. إلا أنه في الفترة الأولى من الإسلام كان هناك خَللٌ في ثبات دلالاتهما العلمية.

وفي هذا الفصل جرت محاولة للتوضيح بضرب عدد من الأمثلة من المصادر الأولية من فجر الإسلام والتي أوضحت أنَّ كلًّا من «الحديث» و«السنة» استخدما بمعانٍ متعددة، وكمصطلحات قابلة للتبادل، وفي حين أنَّ محاولة التحليل اللفظي لكلمة «السنة» و«الحديث» ـ وذلك في فصلين منفصلين ـ قد تمَّ بحثها؛ إلا أن هناك مصطلحات أخرى منوعة مثل «المتن» و«الأثر» و«الحكمة» و«الخبر» قد تم بحثها أيضاً ليُرى مدى ارتباطها بالسنة والحديث، وتم مناقشة أنواع مختلفة من السنن في هذا الجزء مثل: «سنة القبيلة» و«السنة الإلهية» و«السنة النبوية» و«السنة المحلية» وما إلى ذلك.

* * *

الفصل الأول
دلالات السنة

الدلالة اللفظية لكلمة سنة

1 ـ أهمية دراسة تاريخ تطور كلمة «السنة»

على المستوى الصرفي فكلمة «سُنَّةٌ» مشتقة من الأصل «س، ن، ن»، وتعني: الشحذ أو السنّ، مثل سَنّ المدية، أو الرمح»[1] ولهذا فالشاعر الجاهلي «بشامة بن الغدير»[2] وصف سيفه بهذه الكلمات:

وبقـــاءِ مَطْـــرورٍ تَخَـــيَّرَهُ ... صَـــنَعٌ لطـولِ الـسَّنّ والوَقْـعِ[3]

فقدرة احتمال النصل الذي اختارهُ حدادٌ ماهرٌ بعد شحْذِه وسَنِّه لفترةٍ طويلة[4].

ومن هذا المنطلق فالمعنى الاشتقاقي الشفهي لكلمة سَنَّ يعني: «صَوَّر» بمعنى تصميم شيء أو إنتاجه كنموذج ولهذا فـ «سَنَّ الطين» تعني: «شَكَّلَ من الصلصال إناءً خزفياً»[5].

---

(1) الجمهرة: (2: 34).

(2) هو بشامة بن الغدير، والغدير لقبُ أبيه عمرو بن هلال بن سهم بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان. شاعر محسن مقدم، وهو خال زهير بن أبي سلمى. ولد مقعداً ولا ولد له، وكان مكثراً من المال، فلما حضره الموت جعل يقسم ماله في أهل بيته وبنى إخوته، فأتاه زهير فقال: يا خالاه، لو قسمت لي من مالك! فقال: والله يابن أختي لقد قسمت لك أفضل ذلك وأجزله، فقال: وما هو؟ قال: شعري ورثثيه. وكان أحزم الناس رأياً، كانت غطفان تستشيره إذا أرادت الغزو. وفي نسبه خلاف، ذكرنا أرجح ما قيل فيه. وعن هذا الخلاف يهم كثير من العلماء. فيظنون أن بشامة بن الغدير غير بشامة بن عمرو، يفرقون بينهما، وهما عند التحقيق واحد. وأخوه أسعد بن الغدير له ذكر في الشعر والشعراء لابن قتيبة بتحقيق أحمد محمد شاكر ص 92 (المترجم).

(3) المفضليات تحقيق أحمد شاكر صفحة (407)، وقد وصف الشاعر سيفه المطرور = المحدد: عنى به السيف. أي: وبالتي لها بقاء مطرور، تبقى على الكد والسير (المترجم).

(4) المفضليات (2: 344).

(5) السيرة النبوية لابن هشام طبعة (جوتنجن) بألمانيا، (78)، اللطائف (2).

وكما هو واضحٌ من الأمثلة السابقة، فالسُّنَنُ تَحْمِلُ معنى «خلق شيءٍ وإبداعه»، أو عرض ممارسة جديدة؛ فمثلاً إنَّ الشكل اللفظي لكلمة سَنَّ في جملة = (هو أول من سَنَّ الرحلتين)[1] تشير إلى تقدم هاشم[2] (لأول مرة) على القوافل التجارية السنوية والتي تتم واحدة في الشتاء، وأخرى في الصيف.

ولكي نأخذ مثالاً آخر فالشاعر نُصَيْب[3] يقول:

كأني سَنَنْتُ الحبَّ أول عاشقٍ من النَّاسِ أَحْبَبْتُ من بينهم وَحْدي

يقصد أنه من بين كافَّةِ البشر يبدو أنني أول محب، ولم يَقدمْ شخص آخرَ سواي على إقامة مدرسة للحب بينهم.

فالفعل «سَنَّ» يحمل معنى الاستمرارية، ويعني العمل المتواصل ولهذا فالتعبيران: سَنَنْتُ الماء على وجهي[4]، وسَنَنْتُ الترابَ على وَجْهِ الأرض[5] يعني أساساً: ظَلَلْتُ أَصُبُّ الماءَ على وجهي، واستمرَّ الغبارُ يسقط على وجه الأرض.

ولنورد مثالاً آخر من الشعر الجاهلي، فالشاعر بشر بن أبي خازم[6]، يثني على جمال محبوبته ويقول:

---

(1) لسان العرب: (17/ 91).

(2) هو هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة: أحد من انتهت إليهم السيادة في الجاهلية؛ ومن بنيه: النبي ﷺ، كان اسمه عمرو، وغلب عليه لقبه «هاشم» لأنه أول من هشم الثريد لقومه بمكة في إحدى المجاعات، وهو أول من سنَّ الرحلتين لقريش، للتجارة: رحلة الشتاء إلى اليمن والحبشة، ورحلة الصيف إلى غزة وبلاد الشام، وربما بلغ أنقرة. (المترجم).

(3) هو الشاعر نُصيب بن رباح، أبو محجن مولى عبد العزيز بن مروان، شاعر فحل مقدم في النسيب والمدائح، له سيرة ذائعة، وأخبار مع عبد العزيز بن مروان، وسليمان بن عبد الملك، والفرزدق وغيرهم. أرخه ابن تَغْري بَرْدي في وفيات سنة (108). (المترجم).

(4) ومنه في حديث بول الأعرابي في المسجد: «فدعا بدلو من ماء فسنَّه عليه» أي: فصبَّه (المترجم).

(5) في حديث عمرو بن العاص عند موته: «فسنُّوا عليّ التراب سنّاً» أي ضعوه وضعاً سهلاً. (المترجم).

(6) بشر بن أبي خازم الأسدي: شاعر جاهلي فحل، من الشجعان = من أهل نجد، له قصائد في الفخر والحماسة. خزانة البغدادي (2: 135) و(3: 43)، والشعر والشعراء (86)، وأمالي المرتضى (2: 114). (المترجم).

وأَبْلَــجَ مُــشْرِقَ الخَــدَّيْن فَخْــمٍ يُــسَنُّ عــلى مَراغِمِــه القَــسَامُ[1]

وهذا يعني أنَّ محبوبته لها وجهٌ جميلٌ مشرقٌ، وخدودٌ ملساء، وأنفٌ أنيق، وحولها شعاع من الجمال أشبه بزخات المطر.

ويلاحظ أن الشاعر في هذه الأبيات يستخدم الفعل «سَنَّ» بمفهوم الاستمرارية، ويقول: بأنَّ الجمالَ لا يزال يُغْدَقُ على مَحْبوبته.

ولهذا نرى أن أصل كلمة «سنة» تحمل دلالتين أساسيتين:

(الأولى): بمعنى تقديم أو صياغة شيء جديد كنموذج.

(الثاني) يحمل معنى الاستمرارية في الفعل.

وانطلاقاً من هذه القواعد فمن الممكن أنْ نُعَرِّفَهُ بأنه عادة أو ممارسة تُتَّخَذُ مثالاً يُحْتذى به[2].

وهذه الدلالة تحملُ عنصراً من عناصر السلوك والأخلاق الإنسانية، وفي هذا المعنى يقول «بشامة بن الغدير»:

وبَــدَأْتُمُ للنّــاسِ سُــنَّتَها وقَعَــدْتُم للــرِّيحِ في رَجْــعِ[3]

والمعنى أنه يضربُ مثلاً للرجال بأنه بسلوكك في التعامل مع الآخرين والجلوس في مكان، فربما يتغير الريح.

واستخدم شاعرٌ جاهليٌّ آخر يسمى «المتلمس»[4] وهو خال (طَرَفَة)[5] كلمة «سنة» بالمعنى نفسه المعنى. وقال:

ليُرْثَــى بعــدي سُــنَّةً يُقْتَــدى بهــا.

---

(1) وأبلج = أي بوجه أبلج وهو الواضح الحسن. الفخم = المكسو من اللحم. يسنُّ = يصب، المراغم = الأنف وما حولها، القَسَام = الحُسن.

والبيت من قصيدة في المفضليات تحقيق أحمد شاكر ص (334). (المترجم).

(2) المفردات للراغب الأصفهاني: (245).

(3) في رجع = أي فيما يرجع عليكم عيبه، والبيت في المفضليات ص (408) ط. دار المعارف. (المترجم).

(4) واسمه جرير بن عبد العزّى = شاعر جاهلي من أهل البحرين، وهو خال طرفة بن العبد. (المترجم).

(5) طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي أحد شعراء المعلقات قتل شاباً. (المترجم).

والمعنى أنه بعد أن يترك الدنيا فقد ترك سُنَّةً يُحتذى بها وتؤخذ كنموذج يمكن تقليده[1].

وهذه الكلمة بالمعنى السابق وُجدت في مادة الحديث أيضاً، فيقال كمثال «لن يوجد نَبِيٌّ مرةً أخرى ولكن النبي كان له حواريوه الذين يعملون طبقاً لسنته ومسلكه[2]»، واستخدم النبي تعبير «سنة أهل الكتاب» للإشارة إلى ممارسة قام بها مع احترامه لأهل الكتاب، ناصحاً أصحابه بكيفية التعامل مع أهل الكتاب.

ونُقلَ عنه قوله: «سُنّوا لهم سُنَّةَ أهل الكتاب»[3].

ومعنى هذا أن يتكيَّف مع أهل الكتاب السابقين، وهذا التصرف يعني توفير الأمان للعباد من أهل الكتاب بعد دفع الجزية.

والفعل «سَنَّ» له دلالة أخرى بمعنى «التحديد والثبات» وهو بهذا المعنى مساوٍ لكلمة فريضة، أو الفرض.

وخير مثال على هذا عندما تقدم يزيد بن عبد الملك لخالد بن المطرف يطلب أخته للزواج، قال له: إن أبي قد سَنَّ لزواجها عشرين ألف دينار كهدية زفاف فإذا أعطيتني هذا المبلغ سأوافق لطلبك وأزوجك أختي[4].

ونرى أنَّ الفعلَ «سَنَّ» فيما نقلنا سابقاً، قد استخدم بمعنى «فرض»، أو «أفرض» والذي يعني الثبات والتحديد.

ومثال آخر للفعل «سَنَّ» بمعنى «أفرض» قَرَّر = الذي تأثر فيه عمر للغاية بالأداء العظيم لجنوده، ويقال: إنَّهُ حَدَّد، أو سَنَّ لهم مكافأةً قدرها ألفا دينار[5].

---

(1) فجر الإسلام، ص (160).

(2) المسند: (4: 176، 187).

(3) من حديث أنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ذَكَرَ الْمَجُوسَ، فَقَالَ: مَا أَدْرِي كَيْفَ أَصْنَعُ فِي أَمْرِهِمْ. فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمنِ بْنُ عَوْفٍ: أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ «سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ». (المترجم).
موطأ مالك (1: 278)، في الزكاة، الأموال (32)، الخراج (155)، السيرة (844) (طبعة وستنفلد)، تهذيب الأسماء واللغات (2: 156 ـ 157).

(4) فجر الإسلام (152).

(5) تاريخ الطبري. ط أوريه (2564).

وكما نرى بوضوح فإنَّ المعنى الشخصي للفعل «سَنَّ» في المثالين السابقين يعني «فَرَضَ» أو «فَريضة» والتي تعني «حدود».

والاشتقاق الآخر لمصطلح «السنة» هو «سَنن» أو «سُنَن» أو «سِنَن» يعني طريقة في الحياة، ولهذا فتعبير: تَنَحَّ عن سَنَنِ الطريق[1] تعني: تجنب وسط الطريق، ونحن نلاحظ في هذا المعنى أيضاً أن الدلالة الحقيقية للاستمرارية مُتَضَمَّنَةٌ في هذا المعنى = وهي تعني: سِرْ بعيداً عن وسط الطريق[2]، ونلمس معنى الاستمرارية للسير المتواصل على قطعة بعينها من الأرض من جانب السائرين، وهذا التشابه في الدلالة الأصلية جعل كلمة «سُنة» مرادفة لكلمة «طريق»، أو «طريقة» بمعنى الطريق، واستخدم الشاعر «أفْنُون»[3] هذا المعنى عندما قال:

لما فَدَوْا بأخيهمْ مِنْ مُهَوِّلةٍ ... أخا السَّكونِ ولا جَارُوا على السُّنَنِ[4]

---

(1) مختار الصحاح (317)، السيرة (844)، تهذيب الأسماء واللغات (2: 156 ـ 157).

(2) كنز الحفاظ لابن السكيت (471)، لسان العرب (17: 90)، المغازي (333).

(3) هو صريم بن معشر بن ذهل بن تيم بن عمرو بن مالك بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل. شاعر جاهلي مشهور، لقبه «أفنون» بضم الهمزة، وهو «واحد الأفانين، وقال قوم بل هو جمع فن، والجمع أفانين وأفنون». قاله ابن دريد في الاشتقاق 3، 2 وقال في الجمهرة (1: 18) «جمع فن أفنان ويقال أفنون والجمع أفانين». وحكى صاحب الخزانة (4: 46) جواز فتح الهمزة، ولم نجد ما يؤيده. ولقب بذلك لقوله في بيت «إن للشبان أفنوناً». وهو القائل في مقتل عمرو بن هند لما قتله عمرو بن كلثوم التغلبي:

لعمرك ما عمرو بن هند وقد دعا ... لتخدم لبلي أمه بموفق

فقام ابن كلثوم إلى السيف مصلتاً ... وأمسك من ندمانه بالمخنق

وانظر معجم الشعراء 119، 249، والنقائض 886، وابن الأثير 1: 226. وهذان البيتان ذكرهما الجاحظ في الحيوان 3: 135 ضمن 5 أبيات، نسبها لجابر بن حني التغلبي. وأخطأ الآمدي في المؤتلف 151 فسماه «ظالم بن معشر» وأخطأ البحتري في حماسته 163 والجاحظ في البيان 1: 22 فسمياه «أفنون بن صريم». (المترجم).

(4) بأخيهم: أراد نفسه، والباء للبدل، من مهولة: من أجل مصيبة هائلة. أخا السكون: رجل من السكون كان أسيراً عند قوم أفنون، والسكون: بفتح السين: قبيلة من كندة باليمن، بالغ في ذكر تبرؤهم منه وجفائهم له.

والبيت في المفضليات ص (262) طبعة دار المعارف. (المترجم).

ومعنى هذا أنهم لن يفدوه من الخطر المهدد له وذلك عندما يقول: «السّكون»، وأنهم حادوا عن سُنَّة العرب التي تقتضي أن يدافعوا عنه، وهو الذي كان ينافح عن أحسابهم.

فالسنة أحياناً تعرف بأنها «الطريق القويم، أو الطريق المسلوكة، أو الطريق المعبدة» بمعنى الطريق الممهدة[1].

أما المرحلة الثانية في تطور معنى السنة فهو اتساع دلالة اللفظ بالنسبة لسلوك الإنسان، ووفقاً لهذا المعنى فهو يعني «طريقة التصرف» وأصبح مرادفاً لكلمة «السيرة» وطابق مصطلحا: «السيرة والسنة»، ويمكن استخدام أحدهما بدلاً من الآخر، وحين ننقل مقطعاً مشهوراً من شعر خالد بن عتبة الهذلي[2] نجد أنَّ مؤلفي المعاجم أحلوا لفظ السنة بلفظ السيرة.

والجوهري[3]، وابن فارس[4]، وابن منظور[5] كمثال خلطوا بين السنة والسيرة في سطرين من مقطع شعريٍّ، في حين استخدم «الزبيدي»[6] كلمة «السيرة» في الشطر الأول، وكلمة «سنة» في الثاني.

أما العلماء الغربيون المتميزون فقد ترجموا كلمة سنة بمعنى «عادة»[7]، «حادثة سابقة مماثلة»[8]، «ممارسة»[9]، «طريق»[10]، «طريقة تصرف»[11]، «إجراء»[12]، أو «طريق ممهدة»[13].

---

(1) تاريخ فنون الحديث للخولي ص (5).

(2) يأتي ذكره بعد قليل في الصفحة التالية، ويقال له «عتبة بن زهير».

(3) في تاج اللغة (2: 383).

(4) في معجم مقاييس اللغة (3: 61).

(5) في لسان العرب (6: 56).

(6) في تاج العروس (9: 244).

(7) موير: حياة محمد، ودائرة المعارف الإسلامية (13: 25).

(8) شاخت: أصل الشريعة الإسلامية.

(9) مرجليوث: محمد ﷺ.

(10) روبسون: عالم الإسلام (12: 1: 24).

(11) شاخت: الأعمال المختارة صفحة 268.

(12) المصدر السابق.

(13) مونتجمري وات: «Muslim intllectual» صفحة 91.

وطبقاً لما توفر لنا من براهين وأدلة فإن أفضل معنى للسنة يبدو أنَّهُ «طريقة التصرف» أو «السلوك» لأنه عندما نفضل هذا المعنى بجوهره المعلوم فإنه يتضمن كافة المترادفات المتشابهة مثل «الممارسة» «العادة».... الخ.

2 ـ معنى السنة:

(أ) الممارسة العملية بصفة عامة

إن كلمة السنة في حد ذاتها لا تعني أكثر من ممارسة سواءً. أكانت هذه الممارسة جيدة أو سيئة[1]، محل قبول أو موضع نفور[2]، واستخدام لفظ «سنة» بهذا المعنى نجده في قول الشاعر الجاهلي خالد بن عتبة الهذلي:

فَلاَ تَجْزَعَنْ مِنْ سُنَّةٍ أَنْتَ سِرْتَهَا ... فَأَوَّلُ راضٍ سُنَّةً مَنْ يَسِيرُهَا[3]

وهذا المثال يعني أن لا تكن متردداً عن ممارسة أنتَ صاحب المبادرة فيها، لأنَّ أول شخص يشعر بالسعادة في هذه الممارسة (السنة) هو الشخص الذي يمارسها لأول مرة.

---

(1) جمهرة اللغة لابن دريد، طبعة حيدر آباد (2: 34).

(2) المصباح المنير (1: 312).

(3) وسبب هذا البيت أنَّ أبا ذؤيب كان يَعْشَق امرأةً اسمها أُمُّ عمرو، وكان رسوله إليها خالداً، وهو ابنُ أخت له وقيل ابن عمٍّ له، وكان جميلاً، فعشقَتْه أُمُّ عمرو، فلما أيقن أبو ذؤيب بغدرِ خالد صرمَها، فأرسلت تترضّاه فلم يفعل، وقال هذه الأبيات:

تُريدينَ كيما تَجمعيني وخالداً ... وهل يُجمَعُ السَّيفانِ وَيْحَكِ في غمْدِ

أخالدُ ما راعيتَ من ذي قَرابةٍ ... فتحفظَني بالغيب أو بعضِ ما تُبدِي

دعاكَ إليها مقلتاها وجيدُهَا ... فَملتَ كما مال المحبُّ على عمدِ

فكنتَ كرقراق السَّراب إِذَا جرى ... لقوم وقد باتَ المطيُّ بهم تَخْدِي

فآليتُ لا أنفكُّ أحدُو قصيدةً ... تكون وإياها بها مثلاً بعدي

وكان أبو ذؤيب فعَلَ كذلك برجل يقال له مالك بن عُويمِر، وكان رسوله إليها.

وجرى بين أبي ذؤيب وبين خالدٍ أشعارٌ مذكورةٌ في أشعار الهذليّين، منها قول خالدٍ يجيبه، قصيدةً على هذا الرويِّ والوزن:

فلا تجزَ عَنْ من سُنَّةٍ أنتَ سِرتَها ... فأوّلُ راضٍ سُنَّةً من يَسيرُها

من خزانة الأدب (8: 514 ـ 515)، ولسان العرب (2169) ط. دار المعارف. (المترجم).

ونرى من وقت لآخر ذكر «السنن» مختلفة، مثل: «سنة حسنة»[1] «سنة الخير»[2] {الممارسة الجيدة} «سنة سيئة»[3] أو «سنة الشر»[4] {الممارسة السيئة}.

وعلى أية حال نستخدم كلمة «سنة» بمعنى «يمارس» على وجه العموم. ولهذا فتعبيرات «سنة عمر»[5]، أو «سنة ابن فلان»[6]، «وسنة أبي بكر»[7]، تشير إلى ممارسة دينية واجتماعية وسياسية باسم الشخص المذكور.

وهكذا نجد أن مرجع «السنة» وضعها أناس صالحون[8]، مثل «سنة الشرعيين»[9] سنة المسلمين عموماً[10]، و«سنة أول خليفتين»[11]... إلخ.

وبوضع مصطلح «سنة» على عملية الممارسة بصفة عامة وجد لها دليل فيما ذكر في «العقد الفريد»، ففي محاولة لتتبع أصل استخدام صيغة «بسم الله الرحمن الرحيم» في الخطابات فقد علق «ابن عبد ربه» على ذلك بقوله إن أول من استخدم البسملة بمعناها الكامل كان النبي ﷺ وبعده أصبحت ممارسة (وسنة)[12]، وأضاف «ابن عبد ربه» أن «الصحابة والتابعين حذوا حذو الرسول ﷺ «واستمرت هذه الممارسة حتى فترة حكم الوليد بن عبد الملك الذي قام بتغييرها»، واستمر ما عرف باسم «سنة الوليد» فترةً

---

(1) صحيح مسلم (4: 223) ـ كتاب العلم، ح (3049).

(2) جامع الترمذي (5: 143) ـ كتاب العلم.

(3) صحيح مسلم (4: 223) ـ كتاب العلم.

(4) جامع الترمذي (5: 143) ـ كتاب العلم.

(5) الأموال (532)، المسند (8: 78)، جولد تسيهر (دراسات إسلامية) (2: 120).

(6) مسند الإمام أحمد (8: 169) طبعة شاكر.

(7) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء (154).

(8) الخراج، ص (5).

(9) الرد على سير الأوزاعي ص (24).

(10) تاريخ الطبري. ط أوربة. (1: 3132، 3228).

(11) المصدر السابق (1: 2976، 3044، 3276)، (2: 1392)، والخراج (164).

(12) العقد الفريد (4: 243).

طويلةً باستثناء فترة حكم «عمر بن عبد العزيز» و«اليزيد الكامل»[1] اللذين اتبعا سنة النبي ﷺ[2].

ونستطيع أن نرى بما لا يدع مجالاً للشك في المثال الذي استشهدنا به فيما سبق أن كلمة «سنة» تعني الممارسة بصفة عامة.

(ب) القوانين العرفية:

لقد رأينا أن المعنى الحرفي لكلمة «سنة» يشير ضمناً إلى معنى الممارسة بصفة عامة، بيد أن المعنى المحدد تحديداً دقيقاً يمكن أن يساوي، أو يعادل القوانين العرفية، والمقصود بهذه القوانين العرفية مجموعة قوانين غير مكتوبة، وتقاليد بها نَظَّمَتْ المجتمعات البدائية حياتَها، ولو طبقنا التعريف القانوني للقانون العُرْفي ودرسنا بعناية الضرورات الأساسية لمسألة العرف أو العادة سنلاحظ أن «السنة» في عصر ما قبل الإسلام، وفي فجر الإسلام تتضمن معنى مشابهاً للقانون العرفي.

فالقانون العرفي تم تعريفه على أساس أنه «خلاصة تجربة الأجيال السابقة، التي نَظَّمَتْ بنجاح حياتها حتى تَضْمَنَ لحياتها الاستمرارية وتزود المجتمع ذاته بما هو محل قبول أفراده، وبما هو قابل للممارسة العملية، وطبقاً لهذا التعريف فالقانون العرفي يحتوي على المقوم الجوهري لما يتعلق بشؤون الحياة بلغة القانون، فإنه واحدٌ من سبع مقومات ضرورية لجعل عادة بعينها طيبة، وأنَّ هذه العادة يجب ممارستها لفترة طويلة لدرجة أنَّ ذاكرة الإنسان تستوعبها وليس العكس[3]؛ ولهذا فالقوانين العرفية تعد أساساً قوانين قديمة وتقليدية.

---

(1) وربما أُطلق عليه «يزيد الناقص»، لأن سلفه «الوليد بن يزيد» كان قد زاد في أعطيات الجند، فلما ولي «يزيد» نقص الزيادة، كما يقال له «يزيد الشاكر لأنعم الله»، أما لقب «الكامل» فلأنه من أهل الورع والصلاح، قال «نشوان الحِمْيري»: «لم يكن في بني أمية مثله ومثل عمر بن عبد العزيز».
وقد ولد سنة ثمانين، واستولى على الخلافة من ابن عمه الوليد بن يزيد سنة ست وعشرين ومئة، لكنه توفي بعد ستة أشهر.
تاريخ الطبري، حوادث سنة 126، الكامل في التاريخ أيضاً حوادث سنة 126، تاريخ ابن كثير (10/ 11)، سير أعلام النبلاء (5/ 374)، الأعلام (8/ 190 ـ 191).

(2) العقد الفريد (4/ 243).

(3) دائرة المعارف البريطانية (الطبعة 14)، (6: 904).

إنَّ الاستمرارية ملمحٌ آخر من ملامح القانون العُرْفي، فمصطلح «عرف» في حدِّ ذاته يقترح أن نموذجاً معيناً من السلوك يتبناه شعب معين لفترة طويلة من الزمن ويكشف مكانته باعتباره عادة.

وملمح آخر من ملامح القانون العُرفي أنه قانون معياريٌّ بطبيعته فالعادة بالنسبة للرجل البدائي متداخلة بصورة لا تقبل انفصاماً في الدين، وطبقاً لذلك الوضع فالقوانين العرفية يعتقد أنها محل قبول الناس على اعتبار أن القوانين العادية تخلو من عنصر المعيارية.

وفي النهاية فإن القوانين العرفية التي تخلو من خَلْفية سياسية تمارسُ نفس الدور الذي يمارسه الدين، وتتمتع بنفس قوة الرأي العام.

والآن إذا فهمنا كلمة «سنة» كما استخدمت في الأدب الممعن في القدم، سنلاحظ أنها تتمتع بمعظم خصائص القانون العرفي، وبالتالي فهي مرادفة له.

وهذا القانون العُرفي هو القانون السائد في المجتمع البدوي وهو قانون قديم، ومستمر ومعياري، وغير مكتوب، وله قوة القانون العادي.

علاوة على أن السنة أشبه بالقانون العرفي مقارنة بمعناه الواسع بما يشمله هذا القانون من مسائل دينية، واجتماعية، وقانونية متنوعة.

ولنأخذ أمثلة محدودة من المصادر المتوفرة لنرى مدى تطابق مصطلح «السنة» مع الأشكال المختلفة للقانون العرفي.

رأينا فيما سبق أن مصطلح «السنة» في حد ذاته كلمة عادية تعني «ممارسة» ولكن في إطارها المحدد تشير إلى طقوس اجتماعية ودينية يمارسها المجتمع، وهذه السمة واضحة في المثال التالي:

عندما لاحظ يهود الجزيرة العربية أن النبي ﷺ يتجه في صلاته إلى القدس، علقوا على هذا قائلين «على الرغم من أن محمداً يؤكد على أنه أتى بدين جديد إلا أننا لا نرى أي شيء جديد في نبوته»! ألم يُصلِّ تُجاه قبلتنا وبالتالي يتبع ديننا (يستنُّ بسنتنا)[1]؟ وفي هذا التقرير استخدم اليهود كلمة «سنة» ليصفوا ممارستهم لدينهم.

---

(1) النهاية (1: 329).

وكلمة «سنة» تشير أيضاً إلى الممارسات الاجتماعية للمجتمع، ونقل «ابن سعد»[1] تقريراً يصف فيه طريقة دفن الموتى، كتب يقول:

«حينما مات آدم، حفر الملائكة قبراً، وصلوا عليه وخاطبوا أولاده: «هكذا تكون سنتكم» إشارة إلى دفن الموتى. وكلمة «سنة» هنا بمعنى عادة المجتمع من الناحية الاجتماعية.

والممارسات السلوكية والقانونية للعرب في الجاهلية تم التعبير عنها بمصطلح سنة، وعادات الزواج، والطلاق والعلاقات الأسرية الأخرى كانت جزءاً من التقاليد التي مارسها العرب. وكثير من هذه التفاصيل للقواعد القانونية وجدت في كتاب «المحبر» «لابن حبيب»[2]، والكاتب أطلق على هذه العادات سنة وذكرها تحت هذا العنوان { السنن التي كانت الجاهلية سَنَّتْها فأبقى الإسلام بعضها وأسقط بعضها }، ولأن المؤلف تحت هذا العنوان يذكر فقط المسائل القانونية فيبدو أن «السنة» استخدمت مشيرة إلى العادات القانونية للمجتمع الوثني.

فمصطلح السنة يشير أيضاً إلى الممارسة العامة للمجتمع كما هو واضح في التقرير التالي: عندما مر المسلمون بشجرة خضراء كبيرة سميت باسم وثني، وكانت تدعي «ذات أنواط» طلبوا من الرسول ﷺ أن يسمي لهم شجرة مثلها أيضاً حتى يتسنى لهم أن يزوروا هذه الشجرة كل عام، ويعلقوا عليها دروعهم مثل الكفار، ويذبحوا حيواناتهم، ويظلوا هناك طوال اليوم.

وعند سماع هذا، لَفَتَ النبي ﷺ انتباههم إلى السورة القرآنية، وقال: { إنها سنة من كان قبلكم }[3] بمعنى أنَّ هذه الممارسات والسنن كانت خاصة بمن كان قبلكم[4].

---

(1) طبقات ابن سعد (1: 1: 2).

(2) هو محمد بن حبيب بن أمية الهاشمي البغدادي المتوفى سنة 245 هـ كان عالماً بالشعر واللغة، وصنف غريب الحديث، والمحبر، وغيرهما. تاريخ بغداد (2/ 277)، الفهرست (1/ 116)، معجم الأدباء (18/ 112).

(3) إشارة إلى الآية 26 من سورة النساء: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ الآية. (المترجم).

(4) أخبار مكة (1: 77)، ونظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي لحسن عبد القادر.

وفي هذه المجموعة القانونية أيضاً، وجدت تقارير تبين أن كلمة «سنة» استخدمها الرسول ﷺ ليصف ممارسة المجتمع لعاداته، فالبخاري كمثال كتب يقول «إنه من بين الثلاث فئات من الناس الذين لعنهم الله هؤلاء الذين يبحثون في الإسلام عن عادات الجاهلية» (مبتغين في الإسلام سنة الجاهلية)[1]. فالسنة المستخدمة هنا تشير إلى تراكم عادات المجتمع الوثني.

ومثال آخر يمكن أن نستشهد به من نص وُجِدَ في سيرة «تاريخ الخلفاء» يقول هذا النص: «إن مصر عندما غزاها عمرو بن العاص زار سُكَّانها عَمْرا، وقالوا: إنَّ نيلنا له «عادة» «سنة» بدونها لن يفيض، وعن هذه «السُّنَّة» ذكروا له إنه في يوم محدد من كل عام يبحثون عن فتاة عذراء، ويحصلون على موافقة أبويها، ثم يخفونها بثوبها وحليها ويلقون بها في النيل، وكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب عن هذه العادة، وردَّ عليه الفاروق عمر يلقنه درساً بأن يخبر سكان مصر بأن فيضان النيل لا يملك شيئاً يفعله لكي تؤمنوا بهذه العادة الخرافية[2].

ويحكي لنا «الطبري» مثالاً آخر حيث تشير كلمة «سنة» إلى العادات التي مارسها الفرس حيث ذكر أنه بعد معركة القادسية كتب «سعد بن أبي وقاص» إلى الخليفة «عمر» يقول «لقد أعاننا الله ضد شعب فارس الذي يتبع عادات معينة (سنناً) خاصة بأجدادهم ورجال دينهم»[3].

وذكر ابن هشام الكلبي مصدراً لعادات فترة الجاهلية، وبعض هذه العادات استمر في عهد الإسلام، وبعضها اختفى، والسنة التي ذكرها ابن هشام تشير إلى عادات المجتمع[4].

وفي ضَوْءِ هذه الأمثلة يمكن أن نقول: إن مصطلح «السنة» في العصور الموغلة في القدم يشير إلى العادات العرفية المختلفة.

---

(1) صحيح البخاري ـ كتاب الديات (4: 318). طبعة ليْدن (1908).

(2) تاريخ الخلفاء للسيوطي (127).

(3) تاريخ الطبري. ط أوربة (1: 2366).

(4) الأصنام لابن الكلبي (19، 48).

(جـ) البدعة:

في معنى أكثر تحديداً نقول: أن كلمة «بدعة» أو «تجديد» استخدمت بمعنى مغاير لكلمة «السنة»، وعليه، فأي شيء يدخل الإسلام دون سندٍ من السنة يطلق عليه «بدعة»[6].

وبدءاً من حقبة ما قبل الإسلام حتى العصر الحديث فالبدعة كانت موضع إدانة عموماً. ويقول حسان بن ثابت: «إن البدع من أسوأ الصفات عموماً»[1]، ويقال إن النبي ﷺ نفسه أدان البدعة، ومثال ذلك أنه قال في إحدى مواعظه: «من يهد الله فهو المهتد، ومن يضللْ فلن تجد له ولياً مرشداً»[2] ومما لا شكَّ فيه أن كافة هذه المعلومات الصادقة متضمنة في كتاب الله. وخير مرشد هو محمد ﷺ، وأسوأ الأشياء جميعها هي البدع. وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة تقود إلى جهنم[3].

وهذا النص في مجمله أو في جزء منه وُجِدَ في مجموع الأحاديث، ويعد هاماً للغاية.

ويفرد الترمذي في جامعه بَاباً مستقلاً للبدعة، ويورد الأحاديث النبوية الدالة على كراهيتها[4].

أما أبو قلابة (م: 124) فذهب أبعد من ذلك بكثير لدرجة أنه قال «إن من يقدم البدعة فقد خسر حياته»[5].

فالبدعة بصفة عامة تعد النقيض لكمة (سنة) والبدعة والسنة نقيضان متنافران تماماً، ولكن الدراسة اللغوية لهذين المصطلحين تعطي نتيجة مختلفة[6].

وطَبقاً لهذه الدراسة فالسنة تخالف المعتقد التقليدي، وتضاد كلمة بدعة، ونحن نرى أن الفعل «سنّ» حرفياً يعني إبداع الفعل؛ فالنبي ﷺ نفسه استعمل هذه الكلمة بهذا المعنى عندما أشار إلى ممارسة معاذ بقوله: «إنه قد سَنّ لكم معاذ فهكذا فاصنعوا»[7].

---

(1) السيرة لابن هشام (930).

(2) الآية الكريمة (17) في سورة الكهف، والترجمة الحرفية للنص «من لا يهديه الله فلا هادي له» وليس بحديث، ولكن رجحنا أنه نقل لمعنى الآية القرآنية الكريمة (المترجم).

(3) سنن النسائي (3: 188 ـ 189)، وجامع بيان العلم لابن عبد البر (2: 182).

(4) جامع الترمذي (5: 143) كتاب العلم حيث بوب بالأخذ بالسنة واجتناب البدعة.

(5) سنن الدارمي (طبعة المدينة) (1: 44).

(6) سيرة ابن هشام (936)، والاعتصام للشاطبي (1: 18 ـ 19).

(7) مسند الإمام أحمد (5: 246) وقد ورد الحديث في شأن الصلاة. حيث تأخر معاذ فصلى ما فاته من الصلاة مع الإمام بعد الفراغ، وكانوا يصلون ما فاتهم أولاً ثم يدخلون مع الإمام. (المترجم).

وتعليقاً على هذا الحديث يقول ابن القيم: «إن النبي ﷺ بهذا السياق يعني أن عمل معاذ سُنَّةً لغيره، لا لأن النبي ﷺ مارس هذا الفعل ولكن لأنها أوامر الله ونبيه»[1].

وتعليق ابن القيم هذا لا يناقض حقيقة أنَّ فعل معاذ هو حرفياً التجديد لأنه يتم فعله لأول مرة.

ويبدو أنَّ ابن القيم نفسه استخدم فعل «سَنَّ» بمعنى عمل شيئاً جديداً لم يَعْرِفْهُ النَّاسُ من قبل، ثم يُبْدأ بعد ذلك في ممارسته.

ومحاولته تفسير الحديث في ضوء السنة التقليدية { أوْ أنَّ السنة الصحيحة في ذلك الوقت هي سنة النبي ﷺ فحسب } والحديث نفسه يوحي بأنَّ التفسير الثاني { المقام على المعنى الحرفي للسُّنَّة[2] } كان أيضاً مقبولاً. وهذا التفسير جَعلَ السُّنَّةَ مقابلة للبدعة، على الرغم من محاولة ابن القيم تفسير ذلك تفسيراً مختلفاً.

واستخدم الفاروق «عمر» أيضاً الفعل «سَنَّ» بهذا المعنى عندما قال: إن السنة المقبولة والصالحة هي السنة التي سَنَّها ـ (لأول مرة) ـ الله ورسوله: «السنة ما سَنّه الله ورسوله»[3].

والكلمة بهذا المعنى السابق وُجدت في نصٍّ يتناولُ فَتْرَةَ القلاقل السياسية في عهد عثمان ـ رضي الله عنه ـ ويقال إنه حين كان الخليفة مسجوناً في بيته يطالب الناس باستقالته استشارَ الخليفةُ عبدَ الله بن عمر في هذه المسألة، ونصح عبدالله عثمان بهذه الكلمات «من وجهة نظري أنك تسن مثل هذه العادات في الإسلام» (لا أرى أن تُسَنَّ هذه السُّنَّةَ في الإسلام) لأنه حينما تصبح المسائل معقدة بين الحاكم وشعبه، يبدأ الشعب في المطالبة بطرده ولأنَّ الخلافة نظام ديني فيجب عليك ألا تتراجع[4].

ومن الواضح في هذا البيان أن الصيغة الفعلية من «تسن» مشتقة من الفعل (سَنَّ) وتشير إلى تأسيس عادة جديدة في الإسلام لم تكن موجودة من قبل.

---

(1) أعلام الموقعين لابن القيم (2: 228).

(2) لسان العرب (17/ 90).

(3) الاعتصام للشاطبي (1: 74).

(4) طبقات ابن سعد (3: 1: 45).

وهناك أيضاً أمثلة أوضح من هذا استخدم فيها الفعل «سَنَّ» بمعنى مارس عادة جديدة لأول مرة.

أ) نقل عن الرسول ﷺ قوله «لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظلماً، إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دَمِها، لأنه أول من سَنَّ القتل»[1].

ب) ويقال إن جبريل هو أول من أنشأ (سَنَّ) الصلاة بشكلها الحالي[2].

ويقال: إن «خبيب بن عدي» هو أول من سَنَّ تأدية ركعتين من الصلاة قبل الشهادة[3].

ويقال إن عبد المطلب كان أول من سَنَّ دية النفس بمئة جمل[4].

وهذه الأمثلة التي استشهدنا بها توضح أنَّ الفعل «سَنَّ» الذي اشتُقَّ منه (سُنَّة) يعد مقابلاً لكلمة «بَدَعَ» والمشتق منه بدعة.

ومما هو جدير بالملاحظة أنه مع أن كلمة «سنة» أصبحت مرادفة لكلمة «بدعة» في أوضاعٍ بعينها فقد كان يُنْظَرُ إلى كلمة «بدعة» بازدراء شديد. وبدءاً من حقبة ما قَبْلَ الإسلام حتى يومنا هذا كانت «البدعة» موضع استهجان. كان علينا أن نكافح كما يقول «شاخت» لنقيم «سنة» للمجتمع[5].

والسؤال الذي يتعاودُ إلى الذهن الآن هو لو أن كل ممارسة أو عادة لشخص ما اعتبرناها بدعة بناءً على التعريف الذي افترضناه فيما سبق أفنعتبر كل قانون جديد أتى به النبي ﷺ بدعة؟

مما لا ريب فيه أن الإجابة ستكون بالإثبات!!

فكافة العادات التي أدخلها النبي ﷺ كانت تعد في الواقع تجديداً في المراحل الأولية، على الرغم من أننا اصطلحنا على أنها سُنَّة، فعلى سبيل المثال يقول: «إنَّ مَنْ سَنَّ سُنَّةً حسنة

---

(1) صحيح البخاري (1: 323) ـ كتاب الجنائز، وصحيح مسلم (3: 98) في القسامة.

(2) مسند الإمام أحمد (4: 121).

(3) السيرة (641)، المغازي (349).

(4) طبقات ابن سعد (1: 1: 54).

(5) القانون الإسلامي. ص (17).

سيكافؤه الله... وإن مَنْ سَنَّ سُنَّةً سيئة سيعاقبه الله[1]، و«السنة» في هذا الحديث تشير إلى عادات جديدة أُدْخِلَتْ في الإسلام، وعليه فهي مقابلة لكلمة «بدعة» وهذا أشبه بما فعله «أبو يوسف» عندما طلب من هارون الرشيد أن يُدْخل بعض السنن الحسنة[2].

وهكذا فإنَّ إدخالَ عادات جديدة يعني التجديد في عادات كائنة ومتأصلة، ونتيجة لهذا فالسنة استخدمت بمعنى «بدعة».

وفي كل الأمثلة السابقة فجميع العادات وُصِفَتْ بأنها «سنة» مع أنها تشير إلى كونها «بدعة» بمعناها الحرفي، ويمكن أن نسرد مزيداً من التفاصيل للعادات الجديدة التي أدخلها النبي ﷺ وفي الواقع هي بدعة بمعناها الحرفي ـ ما من شك في ذلك ـ ومع هذا دعيت بالسنة.

والسؤال الذي يطرح نفسه: إذا كانت السنة والبدعة مترادفين في معنيَيْهما فلماذا كانت السنة مفضلة عن البدعة؟

ربما يرجع هذا إلى المفهوم المعياري المبسط «للسنة» فالعرب محافظون بطبيعتهم ويعتقدون أن السنة تحتوي على عنصر من القيمة الأخلاقية، مع أنهم يعتقدون أن السنة الجديدة تضم أيضاً الصفة المعيارية.

ومن ناحية أخرى فالبدعة كلفظ شيء غير مقبول في تصور العرب، ولهذا فأي عادة جديدة تدخل الإسلام لو كانت جيدة سُميت سنة، وإذا كانت غير ذلك سُمِّيت بدعة، فالسنة كمصطلح تستخدم بالنسبة للعادات المقبولة، والبدعة للعادات المرفوضة.

ولأنَّ الرسول ﷺ كان نموذجاً يُحْتَذى به، فأفعاله ﷺ، وقوانينه، وعاداته التي أَمَرَ بها بطبيعتها تَضْمَنُ قيمة أخلاقية، ولهذا السبب. فعلى الرغم من أن العادات التي أُدخلت في الإسلام كانت تجديدات فلم توصف على أنها بدعة، ولكنها عرفت باسم «سُنَّة».

---

(1) مسند الطيالسي (3: 93)، وصحيح مسلم (4: 112) كتاب العلم.

(2) الخراج (76).

فالتمييز السابق بين المقبول وغير المقبول من العادات مؤسس وفقاً للمصطلحات العادية: بدعة حسنة، وبدعة سيئة. وفيما يتعلق بالفكرة السابقة فقد نقل عن الخليفة «عمر» قوله عن التجديد في شعائر الصلاة: «نعمت البدعة هذه[1]» وهذا معناه: هذا تجديد مقبول أو جيد.

وذكر الشافعي بوضوح «أن التجديدَ الذي يخالف القرآن والسنة أو الأثر أو الإجماع بدعة خارجة، ومع هذا إذا كان هناك شيء جديدٌ ولا يحتمل أيَّ نوع من أنواع الشر، ولا يخالف ما ذكرناه سابقاً، ولا يتعارض مع ما ذكره المتخصص بشؤون الحياة الدينية، فيستحق هذا التجديد الثناء والمديح، ولا يعد موضع اعتراض[2]».

وفي هذا السياق نذكر تعليق «جرون باوم» الذي قال: «إن المجتمع هو الذي يستطيع أن يقبل التجديد الذي كان في بادئ الأمر خروجاً عن القاعدة، وبقبول هذا التجديد يصبح جزءاً لا يتجزأ من السنة متجاهلاً كل وجهات النظر التقليدية في ذلك[3]».

أنواع السنة:

بعد مناقشة أنواع مختلفة من معنى السنة دعونا نلقي نظرة فاحصة على مكوناتها، ودرجة اختلاف أنواع السنة، فمنذ حقبة ما قبل الإسلام مرت السنة بتغييرات متدرجة، واتسع معناها بمرور الزمن.

في البداية تمسَّكَ العرب بشدة بالعادات العُرفية لقبائلهم، والتي سُيِّمت بسنة القبائل ولكن لأن القبائل العربية لم يكن لها دستور وقوانين قبلية، وعلى الرغم من أن هذه العادات كانت مقبولة عموماً إلا أنَّ القبيلة لا تملك فرض هذه العادات بالقوة، أو كما قال «ماكدونالد» «إن هذه العادات كانت مُصانة لا بقانون ولا بسلطة تفرض هذه الحماية[4]».

---

(1) الموطأ (1: 238)، صحيح البخاري (1: 499) في كتاب الصلاة.

(2) دراسات إسلامية لجولد تسيهر (2: 26 ـ 27/ 36 ـ 37)، وإرشاد الساري (1: 342).

(3) Grunebaum. Medival Islam (149)

(4) Muslim Theology (68)

ومع تقدم الإسلام اتسع مفهوم السنة، فمع انتشار مفهوم «إله» في مجتمع الجزيرة العربية[1] أعطى اعتباراً ومصداقية للقانون خوفاً من عقاب الإله، ولفَتَ انتباه العرب إلى «سنة الله» بعدم سخريته بالأجيال السابقة، والمصدر نفسه الذي قدم مفهوم «سنة الله» إلى مجتمع الجزيرة العربية طالب بالطاعة الخالصة لنبي الله، وفَضْلاً عن الأمر القرآني باتباع نبيّ الله كان هناك عاملان أساسيان مسؤولان عن إحلال سنة النبي ﷺ بدلاً من سنة القبيلة.

(أولهما): اعتقدَ العرب أنَّ أفْضَل رجل يحكم القبيلة هو الرجل الذي يتمتع بحكمة بارزة وحصافة، وعدلٍ[2]، ولم يكن هذا الرجل بعد ظهور الإسلام سوى «محمد ﷺ».

(ثانيهما): أن العرب اعتقدوا أن المجتمع الإسلامي قد وجد أنه ذو طبيعة أسمى من طبيعة البشر، ويعيش محكوماً بعادات دينية مقدسة[3].

وكانت سنة النبي ﷺ لفترة طويلة ما هي إلا استمرار للمدارس القديمة والتي تسمى «سنة إقليمية» أي خاصة بإقليم أو منطقة معينة ثم أتت بعد ذلك السنة الإسلامية، ثم السنة التشريعية.

والآن فلنلق نظرة على أشكال من السنة بمزيد من التفصيل لنكوّن صورة واضحة لغرضها ومداها.

1) سنة القبيلة:

إن سكان الجزيرة العربية قبل الإسلام كانوا مقسمين إلى عدد لا يحصى من الجماعات السياسية تسمى قبائل، ثم قسمت هذه القبائل مرة ثانية إلى العديد من الوحدات المستقلة من الأسَر، وكل رئيس أسرة له الحق في انتخاب رئيس القبيلة، ووفقاً لهذه النظرية لم تكن هناك مواصفات خاصة يشترط توافرها لرئيس القبيلة، ولكن النسب الكريم بصفة خاصة هو العامل الحاسم في تحديد الرئيس.

---

(1) Watt (Belief in a High God in pre – Islamic Mecca) Journal of semitic stuaies, Xvi, no. 1 (1971), pp. 35. 40.

(2) Statesman, 59.

(3) Intellectural (14).

ومع أن أعضاء القبيلة قُسموا إلى العديد من الوحدات الأسرية، إلا أنها كانت تدين بالولاء الكامل لرئيس القبيلة، وتتبع الأعراف التقليدية للقبيلة بصفة خاصة وللمجتمع بصفة عامة.

وفي الواقع كان الأفراد يدينون للقبيلة بالامتيازات التي حصلوا عليها وبعزتهم ووجودهم وهذا النظام القبلي يتضمن غياب الجماعة القانونية للأفراد خارج القبيلة، ومن هنا جاءت أهمية القوانين القبلية.

والعرب الذين عاشوا مستقلين وإن كانوا في وحدات سياسية مفتوحة فإنهم محكومون بتقاليدهم وأعرافهم، وقد تمسكوا بعادات أجدادهم وكانوا يشعرون بفخر عظيم بذلك.

ونجد العديد من الإشارات في القرآن التي توبخ أهل مكة لهذا السبب[1].

وعلق «شاخت» على ذلك قائلاً: «ما فعله الأجداد كان يستحق التقليد، لأنه كان الفترة الذهبية للعرب»[2].

ولأنَّ المجتمع قُسم إلى قبائل مختلفة، فكان من الطبيعي أن يُعطي أفراد القبائل أهمية كبرى للقوانين العرفية لقبيلتهم والتي سمِّيت بعد ذلك «سنة».

ونجد أمثلة عديدة في الأدب الجاهلي، وفي الأدب الإسلامي حيث استخدم الشعراء المؤرخون كلمة «سنة» بمعنى عادة قبلية، ويقول لبيد بن ربيعة في ذلك:

من مآثر سَنَّت لهم آباؤهم ولكلِّ قومٍ سُنَّةٌ وإمامها[3]

ومعنى هذا أنهم ينتمون إلى مجموعة من الناس قضى عليهم آباؤهم مجموعة من القوانين المعينة، وفي الواقع أن كل قبيلة لها عاداتها الخاصة (سننها الخاصة)، وقائد أو قدوة يُحتذى به (إمام).

ولنأخذ مثالاً آخر: فأبو قيس بن أبي الأسلت يمدح قبيلة قريش لأنها تتمتع بمجموعة من المواصفات في أنَّ لها عادات معينة فيقول: «إن الناس يعرفون أن زعماءكم

---

(1) القرآن الكريم (الكهف: 55)، (الأحزاب: 38)، (فاطر: 43)، (الفتح: 23).

(2) القانون الإسلامي لشاخت ص (17).

(3) شرح القصائد العشر (88).

من أحسن الرجال مركزاً، ومجلسكم من أفضل المجالس، وعاداتكم من أسمى العادات ومن أصدق المجالس بالنسبة لمجالس العرب»[1].

ومثله الشاعر أيمن بن خريم حين أشار إلى اغتيال عثمان بقوله: «يالك من سنة شريرة، ويقصد بذلك سنة الأسلاف» (فأي سنة جور سَنَّ أولهم)[2].

وفي المثال الثاني الفعل سَنَّ مع الفاعل أولهم (أسلافهم) والمفعول سنة بيَّن بوضوح أن الاسم «سنة» استخدم هنا إشارة إلى «سنة قبيلة بعينها».

والشاعر الجاهلي «أفنون» استخدم الجمع «سنن» إشارة إلى عادات قبلية معينة ويقول: «لن يخلصوا أخاهم من الخطر المهدد له ويفدوه برجل من السكون، ولن يموتوا بسببه كما كان يفعل السابقون (سنن) من قبيلتهم»[3].

وهذه السنة التي تشير إلى عادة قبلية واضحة من المثال التالي كذلك.

---

(1) سيرة ابن هشام (180).

وهذا الشاعر اسمه «أبو قيس بن الأسلت» وكان يحب قريشاً، وكان لهم صهراً: كانت عنده أرنب بنت أسد بن عبد العُزى بن قصيّ، وكان يقيم عندهم السنين بامرأته، فقال قصيدة يعظم فيها الحُرْمة، وينهى قريشاً فيها عن الحرب ويأمرها بالكف بعضهم عن بعض، ويذكر فضلهم ويأمرهم بالكف عن رسول الله ﷺ ويذكرهم بلاء الله عندهم، ودفعه عنهم الفيل وكيده عنهم ومنها قوله:

وأنتم لهذا الناس نور وعصمة ... تُؤَمُّون والأحلام غير عوازب

وأنتم - إذا ما حُصِّل الناس - جوهر ... لكم سرة البطحاء شُمُّ الأرانب

تصونون أجساداً كراماً عتيقة ... مهذبة الأنساب غير أشائب

يرى طالب الحاجات نحو بيوتكم ... عصائب هلكى تهتدي بعصائب

لقد علم الأقوام أن سراتكم ... على كل حال خير أهل الجباجب

وأفضله رأياً وأعلاه سنة ... وأقوله للحق وسط المواكب

وموضع الشاهد هنا لفظ «سنة». (المترجم).

(2) فجر الإسلام (165).

(3) المفضليات (1: 525) قلت: وهو في طبعة شاكر صفحة (262):

لما فَدوا بأخيهم من مهولة ... أخا السكون ولا جاروا على السنن

وقد تقدم هذا البيت من الشعر. (المترجم).

لقد ذكر أن عبدالله بن عبد المطلب بعد زواجه ظلَّ في بيت العرس لمدة ثلاثة أيام لأنها كانت عادة عندهم (كانت تلك سُنَّةً عندهم)[1]، وكلمة عندهم لها دلالة لأنها توضح أنه في مجتمع الجزيرة العربية قبل الإسلام كانت توجد قبائل مختلفة وعادات متباينة ولهذا استخدمت كلمة «سنة».

ولنأخذ مثالاً آخر عندما أراد عبد المطلب أن يوفي بنذره بالتضحية بابنه عبدالله نصحه أقاربه المقربون بألا يفعل ذلك قائلين: «لا تذبحه لأنك لو فعلت هذا فذبح الأبناء سيصبح سنة (عادة) بيننا»[2]. وهذه السنة يبدو أنها تشير أيضاً إلى سُنَّةِ القبيلة.

2 ـ سنة الله:

إن كلمة «سنة» تترجم حرفياً بأنها عادة، أو ممارسة، أو سابقة لتلائم البيئات المختلفة، ومع أن هذه المعاني تحمل فكرة أساسية واحدة بأن السنة لها قوة القانون فالحقيقة أن العادات والممارسات التي كان البدو يتمسَّكون بها فترة تبين أن السنة لا يمكن تجاهلها بسهولة.

فالقضاة والمحكمون في حقبة ما قبل الإسلام كان عليهم أن يحترموا السنة القائمة في ذلك الوقت عند إصدار أحكامهم ولم يكن لرؤساء القبائل وضعاً مميزاً كما وضح ذلك في القانون العرفي. وكان على محمد ﷺ أيضاً أن يوافق على عدد من عادات الجاهلية لأنَّ هذه العادات كانت لها قوة القانون في المجتمع[3].

---

(1) طبقات ابن سعد (1: 1: 58).

(2) أخبار مكة (2: 38).

(3) هذا في جزئيات وليس في كليات.

فلقد جاءَ النبيُّ ﷺ إلى قومٍ لمْ يكونوا ذوي دينٍ، ولمْ يتقيَّدُوا بشريعةٍ أو منهاجٍ مستقرٍ يُنظِّمُ أمورَ عقائدهم ومجتمعهم، فلوْ نزلتْ عليهم الشريعة جملةً واحدةً ما أطاقُوها ولو صدرتْ التكليفاتُ دفعةً واحدةً لنفرُوا منها، فجاءتْ شيئاً فشيئاً، حتَّى إذا ذاقُوا بشاشةَ الإسلامِ واستأنستْ به قلوبُهم، وتطورتْ أخلاقُهم على شكل خلقٍ فاضلٍ مستعدٍ لتقبُّلِ ما تأمُرُ بهِ الشَّريعةُ الإسلاميةُ، خُوطبوا بالشريعةِ كلِّها، فحرِّمتْ أشياءُ كانتْ مُباحةً وكُلِّفُوا أموراً لمْ يكونوا مكلفيها من قبل.

وكان العلاج الذي استنه الإسلام لذلك هو إقراره ببعض الأمور إلى حين ثم نسخها وتحريمها.

فالنسخُ إذنْ يتَّفقُ معَ تاريخِ الإسلامِ في نشأتهِ ولا بأس أن نسوقَ مثالاً على ذلك: =

ومع مقدم الإسلام ظهرَ نوعٌ آخر من «السنة» ألا وهي سنة الله التي دخلت المجتمع العربي لأنَّ السنة لم تكن مضموناً جديداً بالنسبة للعرب لأنهم في الواقع يتبعون سنة أجدادهم وسنة القبيلة ولم يكن مفهوم الله معروفاً فضلاً عن تعدد الآلهة[1].

ومما لا شك فيه أن هذه المصطلحات وجدت في المجتمع طوال الوقت، وعلى الرغم من أنَّ هذه المصطلحات لم تكن متداخلة إلى حد كبير. والقرآن يستخدم هذه المصطلحات كمصطلح مركب وقدم القرآن مفهوماً جديداً لهذه المصطلحات هو مصطلح سنة الله.

وقيل مجيء محمد ﷺ بفترة طويلة. كان العرب في نظامهم القضائي يعتقدون بقوة وسمّو الله، فأحكام الكاهن والقضاة كانت تُنَفَّذ على أساس الاعتقاد بأن هذه الأحكام جاءت من قوة عليا، أما حكم كهانهم فيقول عنه «فيشر» إنه نوع من الأحكام المقدسة لا تقبل نقضاً ولا إبراماً[2].

= فقدْ جاءَ الإسلامُ والعربُ يعتبرونَ الخمرَ من مفاخرهم، فكان لابُدَّ أنْ يترُكَهم عليها حتَّى إذا ما استأنسوا برُوحِ الإسلامِ، وعرفُوا ما في الخمرِ من مآثِمَ، والقرآنُ استدرجُهَم إلى التحريمِ شيئاً فشيئاً حتى أدركوا ما فيها، وتنادَى بمآثمها عُقَلاؤهم فقالَ عمرُ بنُ الخطَّابِ ذو البصيرةَ الثاقبةِ: اللَّهُمَّ بيِّنْ لنَا مَا في الخمرِ بياناً شافياً، فنزل قوله تعالى بالتحريم القاطع:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ فقالت نُفُوسُهم قبل ألسنتُهم: انتهينا يا رب، انتهينا يا رب.

قُلْ مثل ذلك عن نكَاح المتعةِ أيضاً، فالعرب في الجاهلية لم تكنْ العلاقةُ بين المرأةِ والرَّجُل عندهُم منظمةً تنظيماً مُحكماً، وحقوقُ المرأةِ والرَّجلِ لم تكنْ واضحةً، كان منهم منْ يرتبطُ برباط صحيح أقرهُ الإسلام فيما بعدُ، ومنهم مَنْ يستَحلُّ نكاحَ المتْعَةِ، فلما جاءَ الإسلامُ حرَّمَ الفواحشَ ما ظهرَ منها وما بطَنَ، ما كانوا يحرِّمُونه وما كانوا يستحلونه بعاداتهم التي حاربها الإسلام، وكانوا في الحرب يثقلُ عليهم هذا التحريمُ فأباحهُ لهم النبيُّ في الحرب في أوّلِ الإسلامِ ثُمَّ حرَّمها تحريماً قاطعاً إلى يومِ القيامةِ.

وما وافق الرسول ﷺ به من عادات الجاهلية كان في جزئيات وليس في كليات. (المترجم).

(1) Watt, "Belief in a 'High God' in pre-Islamic Mecca", Journal of Semitic Studies, XVI, No. 1., (Manchester University Press: Spring, 1971), pp. 35 – 40.

(2) Fischer, 'Kahin', Encyclopaedia of Islam, ii, 625.

ولهذا عندما تحدَّث القرآن عن سنة الله، لم يجد العرب صعوبة في القبول بأن القانون الإلهي حقيقة واقعة[1].

وفي الوقت المناسب وذلك عندما أصبح العقل العربي مستعداً لقبول فكرة الربانية ذكر القرآن أن سنة الله أبدية وملزمة، وبالتالي يجب اتباعها، وفي نفس الوقت ذكرهم بحقيقة الناس الأوائل الذين أظهروا غطرسة وعدم طاعة للقوانين الثابتة[2] وتعبير سنة الأولين[3] استخدم لينقل هذا التحذير، والغرض من هذا التهديد هو إظهار أن سنة الله لها قوة القانون.

وانتبه العرب إلى رسالة القرآن وأعطى ذلك شكلاً جديداً للسنة «سنة الله»، ومن الواضح أنَّ هذا يتفق والعقلية العربية، ونحن نعرف أنهم احترموا عادات أجدادهم وقدروا أحكام الكهان معتقدين أن قرارَهم له أساسٌ خارقٌ لسنن الكون، وهذا الاعتقاد كان بمثابة قانون، وهذا يوضح أنهم كانوا يعتقدون بالفعل بالقوانين الخارقة للطبيعة والتي يجب طاعتها، ولهذا عندما ذكر القرآن سنة الله كانوا على استعداد لقبولها، وعلَّمهُم محمد (ص) أيضاً أن المجتمع أكثر قوة إذا كان على منهج الله، ومستقبله أعظم من الناحية السياسية وذلك مقارنة بسيادة سيطرة القانون القبلي[4].

وفي هذا السياق يعلق «البروفسور وات» قائلاً: في حين أن بعض المصالح المادية الشخصية ربما يكون عاملاً في اعتناق الدين: إلا أنَّ العامل الأساسي ربما يكون الجاذبية الدينية للصورة الديناميكية للمجتمع الإسلامي عن المجتمع المسيحي[5].

فتعبير سنة الله في الآيات (الأحزاب: 62)، (فاطر: 43)، (الفتح: 23)، (الأحزاب: 48) تضمن أن القانون الإلهي لا يمكن أن يتغير، وهي قوانين أبدية، وفي حين كانت الآيات الثلاثة الأولى تشير إلى سنة الله فيمن يعتقد في تعدد

---

(1) القرآن الكريم (الأحزاب: 62)، (فاطر: 43)، (الفتح: 23).

(2) تفسير البيضاوي (4: 184).

(3) القرآن الكريم (فاطر: 43).

(4) Med. Isl aM (72).

(5) Intellectuaul (51).

الآلهة[1]، بينما تشير الآية الأخيرة إلى الامتيازات التي حصل عليها الأنبياء السابقون بالتزامهم بسنة الله[2].

فكلمة سنة في كل هذه المواضع لها دلالة أساسية ألا وهي «قوانين الله» والذي كان سائداً عند الشعوب البدائية، وفي الآية (آل عمران: 137) وجدت السنن التعددية لتشير إلى الطريقة التي كان يعامل بها الله الكافرين في فجر الإسلام.

وعلى الرغم من أنَّ تعبير «سنن» في الآية يشير إلى مصير الأمة الكافرة لكنه لا يعد حكماً كما رأى «فنسنك» في مقالته عن السنة في دائرة المعارف الإسلامية[3].

وفي الواقع أن كلمة سنة تبين القانون أو طريقة عمل الله. وتشير أيضاً إلى الإجراء الذي يطبقه الله في معاملة الآثمين القدماء، ولا تشير إلى الحكم الذي يصدره الله نتيجة مخالفة قوانينه.

إن تعبير «سنة الله» وجد أيضاً في مصادر أخرى غير القرآن، فالبخاري مثلاً نقل حفلة تتويج حلف اليمين بالنسبة «لعبد الملك بن مروان» حيث نقل عن عبدالله بن عمر قوله: «أقسم بالله العظيم» أن أُطيع الله، وسنة الله، وسنة النبي ﷺ[4]، في حين أمدنا الطبري أيضاً بنصوص عديدة حيث استخدم فيها تعبير «سنة الله»[5]، ومرجع آخر فيه إشارة لسنة الله وجد في مقدمة ابن خلدون، وفيها ذكر أن إقامة المقصورة (الخلوة) كانت في الواقع سنة الله وذلك فيما يتعلق بعبادة أو بمعنى آخر أن هذه الخلوة تم إقامتها وفقاً لقانون إلهي[6].

واستخدم الشافعي أيضاً تعبير «سنة الله» وأوضح معناه في المثال التالي. ففي إشارة منه إلى شعائر معينة يقول: «إنها سنة الله في أن تدخل الحرم» (وهو المكان المقدس في مكة)

---

(1) Watt, "Belief in a 'High God' in pre-Islamic Mecca", Journal of Semitic Studies, XVI, No. 1 (Spring, 1971), pp. 35 – 40.

(2) تفسير الجلالين: (2: 8).

(3) Wensinck, "Sunna", Encycloupedia of Islam, iv, 555.

(4) صحيح البخاري (4: 402) في كتاب الأحكام، و(419) في كتاب الاعتصام بالسنة.

(5) تاريخ الطبري (1: 3427)، (2: 518، 1369).

(6) مقدمة ابن خلدون (269).

ـ وترتدي ملابس الإحرام ـ (وهو ثوب مخصص للحج) ـ ويقصد الشافعي تحديداً بأن سُنَّة الله قانون إلهي كما ذكر في القرآن وكما أوضحه النبي ﷺ[1].

ومن الغريب أننا نجد إشارات كثيرة من التعبيرات لسنة الله في القرآن الكريم، ومع هذا لا نجد إشارة واحدة إلى سنة محمد ﷺ، وغالباً ما نجد عبارات خاصة بالعلماء الأوائل.

ولكي نتبين الأسباب التي أدت إلى غياب تعبير «سنة محمد» يجب أن يكون لدينا فكرة واضحة تمام الوضوح عن مفهوم السنة عند العرب في عصر الجاهلية.

فقد أوضحنا فيما سبق أن العرب كانوا بطبيعتهم محافظين ومتمسكين بعادات وتقاليد آبائهم، ورأينا أيضاً أن السنة يُعتقد أنها من منبع علوي وتعد بمثابة قانون يقوم بتنفيذه.

ومن المعروف أن هؤلاء العرب البسطاء لم يكونوا ليميزوا بين القوانين الدنيوية، والقوانين الدينية والدنيوية على السواء[2].

وفي خضم هذه الظروف، وفي المرحلة الأولى لتطور مفهوم سنة محمد كان لفظ سنة الله أو القانون الإلهي يمكن فحسب أن يكون موضع قبول من العرب، ولم تدخل سنة محمد في ذلك الوقت الإسلام بعد حتى يمكن أن تقبل بذاتها بعد ذلك، وهذا يفسر غيابها من القرآن.

وعلى الرغم من هذا، فإن القرآن أنجز مهمة إدخال مفهوم سنة النبي ﷺ ببراعة منقطعة النظير، فهو من ناحية حوَّل اهتمام العرب من «سنة القبيلة» إلى «سنة الله»، ومن ناحية أخرى قدم لهم شخصية محمد ﷺ القوية بهذه الكلمات المؤثِّرة[3].

وتم هذا في أعقاب إحلال سنة محمد ﷺ بدلاً من سنة القبيلة، ومعنى هذا أن سنة الله كانت بمثابة وسيط في هذا الخط المتدرج، وبسرعة تعلَّم العرب الدرس، وفي هذا يقول «جرون باوم» إن المجتمع تحت سيطرة الإله كان أكثر قوة، ومن ثم كان مستقبله أعظم من الناحية السياسية عما هو عليه من سيطرة القانون القبلي[4].

---

(1) فجر الإسلام (135)، وكتاب الأم (5: 2).

(2) Gray, "customs" Encyclop & of Religion and Ethics (iv, 375).

(3) القرآن الكريم (الأحزاب: 21).

(4) Med. Islam.

3 ـ سنة محمد ﷺ:

في فجر الإسلام دخل مفهوم «سنة الله» في المجتمع العربي والذي تم قبوله بسهولة من المجتمع لأن اعتقادهم في منبع قوي للقانون، وبدأت المشكلة تظهر عندما أصبح لزاماً على المجتمع أن يتواكب مع القانون المعياري والخاص بالنبي ﷺ، يعني سُنَنَهُ.

لقد تبنى النبي ﷺ برنامجاً عملياً في التعامل مع قضية «السُّنَّةِ» وهو مدرك تماماً لوعورة المشكلة: وهو المأمور في القرآن في أن يفرض سلطانه على العرب الوثنيين ويمدهم بالقوانين التي تحل محل عاداتهم القديمة، ولكي ينفذ أوامر الله لم يغير كل العادات القديمة مرة واحدة، فدرس ثقافة شعبه وعرف جيداً مدى بغضه للتغيير، وهذه طبيعة أساسية من طبائع المجتمع البدوي، ويعرف جيداً مدى غيرتهم وحماسهم في التمسك بعاداتهم، وبدأ يغير السنة القديمة فحسب عندما أصبح هذا ضرورياً ولا مناص منه. وعدل بعض هذه العادات، وأبقى على البعض.

وبالنسبة للعادات التي أبقى عليها فهو لم يُجزْها فحسب بل ذهب أبعد من ذلك في فجر الإسلام إذ أنه فرضها فرضاً في الإسلام[1]، وذُكر عنه أيضاً أنه اتبع العادات اليهودية والمسيحية في الحالات التي لم يوجد فيها نص قرآني[2].

وعلى الرغم من أن كثيراً من العادات تم تعديلها أو حتى أُلغيت، فإنَّ عدداً كثيراً منها احتفظ بها الإسلام واستوعبتها العقيدة الإسلامية. إن قبول (التقرير) وهو نوع من أنواع الحديث يبين الموافقة الضمنية للرسول ﷺ لتصرفات أصحابه، والتقرير في حد ذاته يتضمن الاعتراف بانتشار محدود لقوانين سنها الرسول ﷺ.

وبعد تبني هذه السياسة حاز الرسول ﷺ على ثقة المجتمع النبوي، وفي الوقت نفسه بدأ ينشر تعاليم القرآن ويُدخل ـ في الوقت نفسه ـ العديد من القوانين الجديدة في المجتمع العربي، وعندما أصبح الناس على استعداد أن يستمعوا إلى كلماته ويؤمنوا بالقرآن ككتاب مقدس أصبحت مسألة الاعتراف بسنته أكثر سهولة.

---

(1) البخاري: (2: 34، 348، 35) كتاب الأنبياء، و(381) كتاب المناقب.

(2) الشمائل: (496).

وفي البيان القرآني، وفي سنة رسول الله ﷺ سنجد النموذج الطيب، فمثالية السنة والتي وجد الكثير منها في العادات القديمة بدأنا نجدها في سلوك النبي ﷺ وذلك يرجع إلى سلوكه المثالي، وإلى الأوامر القرآنية، التي سار عليها[1]؛ فأفعاله وسلوكه حلت محل سنة أسلافهم، وسنة القبيلة، وسنة الله: لأنَّ سنة الله اندمجت في سنة محمد ﷺ، ولأنَّ العرب بطبيعتهم كانوا على استعدادٍ لاتباع السنة، لم يجدوا صعوبة في الانتقال إلى سنة جديدة، وهي سنة محمد ﷺ؛ فالمسلمون الأوائل كانوا مقتنعين بأنَّ سلوك النبي ﷺ أمدهم بسنة أفضل من التي كانت موجودة في الجاهلية.

وأصرَّ الرسول ﷺ على ضرورة اتباع سنته وحذَّر قائلاً: «من ترك سنتي ليس مني»[2] وهذا يتفق تماماً مع الأوامر القرآنية «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول»[3]، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله[4]، وأصبح من الواجب طاعة رسول الله واتباع سنته.

ومما هو معروف أنه لا مناص من التطبيق العملي للتعاليم القرآنية، ومن ثم فقد حظيت سنة النبي ﷺ بأهمية عظيمة في حياته؛ فالممارسة العملية كانت ضرورية لنعرف طرق ووسائل أداء الشعائر (العبادات) فلم يكن يبين بالكلمات كيفية أداء الوضوء، فكان يقوم بإعطاء بيان عملي لذلك. وعلى سبيل المثال فقد أوضح طريقة أداء الصلاة، وقال «صلوا كما رأيتموني أصلي»[5]، وحدث هذا أيضاً في كثير من المسائل الدينية والأخلاقية والاجتماعية. وأخيراً سميت كل أفعال وسلوك النبي ﷺ «سنة النبي» ثم نظمت هذه الأفعال كنموذج يجب على المجتمع المسلم اتباعه.

وهذا المفهوم أصبح معروفاً بين المسلمين لدرجة أنَّ استخدام لفظ «سُنة» بمفرده أصبح يعني سنة النبي ﷺ، وهنا سوف نورد أمثلة لتوضيح هذه النقطة.

---

(1) القرآن الكريم (آل عمران: 32، 132)، (النساء: 59) (الأنفال: 20، 46)، (الشعراء: 56)، (محمد: 33).

(2) طبقات ابن سعد (1: 2: 95)، مسند الإمام أحمد. تحقيق شاكر (9: 237 ـ 238)، مسند الإمام أحمد (2: 124)، سنن النسائي (6: 60) في النكاح، تاريخ بغداد (3: 330).

(3) القرآن الكريم (النساء: 64).

(4) القرآن الكريم (النساء: 80).

(5) صحيح البخاري (1: 165) في كتاب الأذان.

ففي يوم من الأيام استضاف «ابن عباس» بعض الأشخاص على نبيذ[1] وسأله أحدهم ما إذا كان سيقدم هذا المشروب لأنه كان سنة، أو أنّه يفضل أن يقدم هذا الشراب الخاص حباً به؟

وبدلاً من أن يعطي ابن عباس إجابة مباشرة لهذا السؤال استشهد بمثالٍ من سلوك الرسول ﷺ وقال للسائل: بأن الرسول ﷺ لم يشرب النبيذ فحسب بل حثَّ على شربه[2].

وذكر «ابن عباس» هذا المثال ليوضح أنَّ استضافته لهم على النبيذ كانت تأكيداً لسنة النبي ﷺ، وعرَّفَ أنَّ كلمة سنة في تعليق السائل... عندما قال هل كان سنة؟ مشيراً بذلك إلى سنة النبي ﷺ... ولهذا ساق ابن عباس له المثل من سلوك النبي ﷺ.

ولهذا فمن الواضح أن كلمة سنة (دون مبالغة) تشير هنا إلى الاستشهاد بسنة النبي ﷺ[3].

ولنأخذ مثالاً آخر: ذات مرة طلب الخليفة عمر من الحلاق أن يزيل شعر صدره فنظر أصحابه إليه باستغرابٍ وخاصّة إنه كان يتبع في جميع تصرفاته سنة النبي ﷺ واعتقدوا أن هذا التصرف من عمر هو سنة عن النبي وأوْضَحَ عمر الموقف قائلاً: «أيها الناس إنها لا ريب ليست سنة»[4].

فكلمة سنة استخدمت هنا بوضوح لتشير إلى سنة النبي ﷺ.

وعلى الرغم من أن التعبير العادي للإشارة إلى السلوك المعياري للنبي ﷺ كان (سُنَّة رسولِ الله) وعلى الرغم أن مصطلح سنة كان يستخدم عادةً دون إضافة، وقبل أن ننتقل إلى الاستخدام الموغل في القدم لسنة النبي ﷺ سنستشهد ببعض الأمثلة حيث كان مصطلح سنة بمفرده يشير إلى سنة النبي ﷺ ألا وهي:

(1) ذكر عن الرسول ﷺ قوله: «استقر الإيمان في قلب أمتي بتعلمهم القرآن والسنة»[5].

---

(1) طبقات ابن سعد (4: 1: 114).

(2) شراب من منقوع البلح أو التمر دون أن يتخمر.

(3) طبقات ابن سعد (2: 1: 131).

(4) طبقات ابن سعد (3: 1: 209).

(5) صحيح البخاري (4: 420) في الاعتصام بالسنة (المؤلف) وهو يشير إلى الحديث النبوي الشريف: «أنَّ الأمانة نزلت من السماء في جَذْرِ قلوبِ الرجال، ونزل القرآن؛ فقرؤوا القرآن، وعَلموا من السُّنَّة». فتح الباري (13: 249). (المترجم).

(2) ووضع أبو يوسف مبدأ بأن لا يقبل حديثاً إلا ما وافق الكتاب والسنة[1].

(3) وفي توجيه من عمر إلى أبي موسى الأشعري نقل عن عمر نصيحته إلى أبي موسى ألا يلجأ إلى القياس في المسائل غير الموجودة في الكتاب والسنة[2].

(4) والشاعر الكميت في إحدى قصائده يقول: «بأي كتاب أو بأية سُنَّةٌ»[3].

(5) وذكر أن ابن عباس اعتاد أن يضع القيود في قدم عكرمة ليعلمه الكتاب والسنة[4].

(6) وذكر أن النبي ﷺ أرسل أبا عبيدة بن الجراح إلى اليمنيين ليعلمهم السنة والإسلام[5].

وفي كل الأمثلة التي استشهدنا بها سابقاً. فإن لفظ «سُنَّة» يشير إلى سُنَّة النبي ﷺ لا شيء غيرها، وهذا يوضح أن السُّنَّة بمفهوم سُنَّةِ النبي ﷺ كان قد وضحَ استخدامها تماماً في ذلك الوقت.

وهذه السنة التي تشير إلى سُنَّة النبي دون أي إضافة متضمنة في المثال التالي بما لا يدع مجالاً للشك:

فقد ذكر أن النبي ﷺ في نهاية موقعة «أُحُد» خَرجَ يلتمس حمزة بن عبد المطلب وعندما وجده في نهاية الأمر في بطن الوادي اكتشف أنه قد بُقر بطنه عن كبده، ومُثِّلَ به فجُدعَ أنفه وأذناه، وغَضبَ لهذا المنظر وتحدث قائلاً: «لَوْلا أنْ تَحْزَنَ صَفِيَّةُ (أخت حمزة) وتَكُونَ سُنَّةً مِنْ بَعْدِي لتركتُهُ حَتَّى يَكُونَ في بُطُونِ السبَّاعِ وحَوَاصِلِ الطَّيْرِ ولَئِنْ أظهَرَني الله عَلَى قُرَيْشٍ فِي مَوطِنٍ مِنَ المَواطِنِ لأمَثِّلَنَّ بِثَلاثِينَ رَجُلاً مِنْهُمْ»[6].

---

(1) الرد على سير الأوزاعي ص (31).

(2) كتاب الحجج للشيباني ط. الهند (1888)، صفحة (212).

(3) علم المنهج (Methodology) (8)، حيث بين فضل الرحمن كيف أن لفظ «السُّنَّة» يعني فقط (سُنَّة النبي ﷺ) وليس غير.

(4) طبقات ابن سعد (5: 212).

(5) طبقات ابن سعد (3: 1: 299).

(6) السيرة لابن هشام، ص (584)، وصفحة (3: 47) طبعة محمد محي الدين عبد الحميد. (المترجم).

وكلمة «سنة» في هذا النص غايةٌ في الأهمية لأنَّ الرسول ﷺ بنفسه يستخدمها بمعنى العادة التي يمارسها بنفسه وينبه إلى أن أفعاله ستمثل سابقة للجيل القادم[1].

ووجدنا أن مصطلح سنة دون أية إضافة استخدم في فجر الإسلام بمعنى «سنة النبي» ﷺ.

ونأتي الآن إلى استخدام تعبير سنة النبي ﷺ. ونجد أنَّ وجودها في هذه الفترة المبكرة مساوٍ للتعبير الشائع، ومع هذا ينكر «شاخت» هذه الحقيقة[2].

ويرى «شاخت» أن أول دليل لاستخدام مصطلح «سنة النبي» هو الخطاب الذي أرسله القائد خارجة عبدالله بن إباض إلى الخليفة الأموي عبد الملك عام 76 هـ ـ 695م[3].

ودليل آخر لا يقبل الشك لاستخدام هذا التعبير حَدَثَ في الرسالة التي بعث بها الحسن البصري للخليفة نفسه[4].

وعلى النقيض من اكتشافات «شاخت» فقد وجدنا هذا التعبير في وقت مبكر عن هذا بكثير، بل أثناء حياة الرسول ﷺ.

ونحن نستشهد هنا بأمثلة عديدة لنوضح أن عبارة «سُنَّة النبي» وكثيراً من المصطلحات المترادفة استخدمت هنا الاستخدام الصحيح منذ عهد الرسول ﷺ هنا:

---

(1) يشكك (Guillaume) في هذا النص في طبعته للسيرة ص (387)، ولكن الحقيقة أن النبي ﷺ قد وضح هذا الموقف بعناية، مع نظرة إلى سنته ﷺ في مختلف الأحوال، وافترض أهمية التوثيق كحدث عرضي أيضاً.

ومع ذلك فإننا نرى امتناعه ﷺ عن سحب قليل من ماء زمزم بنفسه يبقى سُنَّةً، في المجتمع الإسلامي، والذي يبقى خاصاً في بني العباس.

وهو ﷺ أنه لو سحب بنفسه دلواً من الماء لصارت سنة للمسلمين. طبقات ابن سعد (2: 1: 131).

في الحقيقة فإننا نجد كثيراً من النصوص الحديثية. أصبحت مُلْزمة للمسلمين بفعلها لأن النبي ﷺ قد فعلها.

(2) القانون الإسلامي لجوزيف شاخت ص (18)، ومنشأ الشريعة الإسلامية له أيضاً ص (74)، وانظر أيضاً: فجر الإسلام ص (131 ـ 133) و(168 ـ 169).

(3) القانون الإسلامي ص (18).

(4) المصدر السابق.

(1) عندما عين معاذ قاضياً لليمن وعندما سأله الرسول ﷺ عن طريقة حكمه في القضايا، ردَّ عليه قائلاً: سأحكم على أساس كتاب الله، فإن لم تكن هذه القضايا متاحة في كتاب الله سأحكم على أساس سنة رسول الله ﷺ[1].

(2) وذكر عن الرسول ﷺ قوله «تركت فيكم شيئين إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله وسنتي»[2].

وفي الواقع أن النبي ﷺ استخدم هذا المصطلح عدة مرات[3]، ومعظم الأعمال القضائية تحتوي نصوصاً أرْجَعَها النبي ﷺ إلى سنته[4].

(3) وذكر عن رسول الله ﷺ قوله: «عليكم باتباع سنتي وسنة الخلفاء الراشدين، عضوا عليها بالنواجذ وتمسكوا بها»[5].

(4) وفي احتفال أقيم بمناسبة عيد الأضحى قال الرسول ﷺ: «... أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي ثم نذبح، فمن فعل ذلك فقد أصاب سُنَّتنا...»[6].

(5) وفي أحد احتفالات يوم الجمعة ذكر عن عمر قوله: «لقد عيَّنتُ ولاة في مختلف الأماكن ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم»[7].

---

(1) سنن الدارمي (1: 55) من طبعة المدينة، جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (2: 56)، وهذا النص يظهر وهم الجوزقاني حيث ذكر النص في الموضوعات، ولكن ابن قيم الجوزية وضح ذلك.
وعده الغزالي صحيحاً في المستصفى، وقال: حديث معاذ نال القبول لدى الأمة. انظر كتاب السنة النبوية لعباس حمادة طبعة القاهرة (1384/ 1965)، صفحة (188).

(2) جامع بيان العلم لابن عبد البر (2: 180)، أخبار أصبهان لأبي نعيم (1: 103).

(3) سيرة ابن هشام (969)، دراسات في أدب البرديات العربي تأليف نبيهة عبود (2: 23)، الكفاية للخطيب (603)، سنن أبي داود (4: 281) في كتاب السنة، حديث رقم (4607).

(4) مسند الإمام أحمد (2: 124)، سنن النسائي (6: 60) في النكاح سنن أبي داود (4: 281) في السنة، حديث رقم (4607).

(5) معالم السنن للخطابي (4: 300)، وجامع بيان العلم (2: 182)، جامع الترمذي (10: 144) في كتاب العلم.

(6) النسائي (3: 182) في باب صلاة العيدين.

(7) الخراج (14، 115)، المنهج ص (8 ـ 9)، حيث أعطى دلائل قوية واضحة عن اجتهاد سيدنا عمر رضي الله عنه.

(6) وفي مناسبة اختيار الخليفة بعد موت عمر في سنة (23)هـ قابل عبد الرحمن بن عوف كلاً من عثمان وعلي أفضل المرشحين للخلافة، وسألهما إذا كانا على استعداد «بأن يتمسكوا بكتاب الله وسُنَّة نبيه»[1].

(7) وقال عثمان في أول خطاب له بعد أن أصبح خليفةً «إنني مسؤول أمامكم عن ثلاثة أشياء، بعد التمسك بكتاب الله وسنة نبيه»[2].

(8) وعندما انتخب عثمان كخليفة أظهر الناس ولاءهم له بهذه الكلمات «نحن نُخلص لك بشرط أن تتبع كتاب الله، وسُنَّة نبيه وسنة أبي بكر وعمر»[3].

(9) وفي إحدى خطب عليّ الطويلة نُقل عنه قوله «أيها الناس أدعوكم إلى كتاب الله العظيم وسنة نبيه»[4].

(10) وعندما رَجَمَ عليٌّ الزانية بالحجارة. برَّرَ تصرفه هذا بقوله «لقد رجمتها بسنة رسول الله ﷺ»[5].

(11) وفي المعاهدة المعقودة بين الحسن ومعاوية، أمر الحسن بالخلافة لمعاوية بشرط أن يتصرف وفقاً لكتاب الله وسُنَّةِ نبيه، وسنة الخلفاء الراشدين[6].

(12) وذكر عن يزيد بن المهلب أنه دعا الناس في البصرة إلى التمسك بكتاب الله وسُنَّة نبيه[7].

(13) وعندما حلف عبد الملك يمين الولاء. ذكر أن عبد الله بن عمر قال «أقسم أن أطيع الله وفقاً لسنة الله وسنة النبي ﷺ»[8].

---

(1) الطبري. ط أورية (1: 2793، 2794).

(2) المصدر السابق (1: 3508).

(3) المصدر السابق (1: 2794).

(4) عيون الأخبار (2: 236).

(5) صحيح البخاري (4: 300) في الحدود.

(6) بحار الأنوار (10: 124).

(7) تاريخ الطبري (2: 1391 ـ 1392).

(8) صحيح البخاري (4: 402) كتاب الأحكام، و(4: 419) كتاب الاعتصام بالسنة.

(14) وفي الخطاب الشهير لعمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن محمد بن عمر بن حزم طَلَبَ عمر منه أن يهتم بالحديث، وسُنَّة النبي ﷺ، ويلتزم بذلك في الكتابة[1].

(15) وفي خطاب عمر بن عبد العزيز إلى عروة بن الزبير شرح عمر له قواعد الحكم وأوصاه بسنة رسول الله ﷺ كمصدرٍ ثانٍ للتشريع الإسلامي[2].

(16) ووجدت عبارات من سنة النبي ﷺ، وآيات من كتاب الله في نقوش عمر بن عبد العزيز في مسجد النبي ﷺ[3].

(17) وقال عمر بن عبد العزيز في أحد عباراته «لا يسمح لأي شخص أن يدلي برأيه طالما توفر هذا الحكم في كتاب الله، وتقبل آراء الأئمة فحسب في حالة عدم توافر دليل في القرآن وفي سُنَّةِ النبي ﷺ»[4].

(18) أما بالنسبة لسؤال أحد الورثة، ذكر أن مالكاً، قال: «لا يوجد شيء بخصوصك في سُنَّةِ رسول الله ﷺ»[5].

(19) وفي خطاب عبد الله بن إباض إلى عبد الملك أشار في هذا الخطاب إلى سُنَّةِ النَّبيِّ ﷺ، وسُنَّةِ الخلفاء الأوائل، وأثنى على أبي بكر لاتباعه كتاب الله وسُنَّةِ نبيه[6].

(20) وأثنى الحسن البصري على السلف في خطابه إلى عبد الملك، وقال: «إنهم عملوا وفقاً لأوامر الله، واتبعوا سُنَّة رسول الله ﷺ»[7].

(21) ونصح أبو يوسف الخليفة هارون الرشيد أن يبني حكمه وفق «سنة النبي ﷺ»[8].

---

(1) الموطأ طبعة الهند (389)، الأموال (578)، سنن الدارمي (1: 126)، طبقات ابن سعد (2: 2: 134) و(8: 353)، تقييد العلم (105)، تنوير الحوالك للسيوطي (1: 4).

(2) جامع بيان العلم (2: 24).

(3) دراسات في أدب البرديات العربي، نبيهة عبود (2: 23).

(4) سنن الدارمي (1: 114) طبعة دمشق.

(5) الموطأ (513).

(6) كتاب الجواهر (157 ـ 160، 164 ـ 166).

(7) الإسلام (بالألمانية) 21 (1933) صفحة (68).

(8) الخراج (76).

(22) وشرح أبو يوسف وجهة نظره بخصوص مسائل التشريع، وقال «في المسائل القانونية يجب أن يتبع المرء سُنَّة النبي ﷺ والسلف والصحابة والفقهاء»[1].

وهذه الأمثلة التي استشهدنا بها آنفاً تظهر بوضوح أنَّ مصطلح سُنَّة النبي ﷺ استخدمه فعلاً الرعيل الأول في الإسلام، وفي عهد الرَّسول ﷺ، وكان التعبير الشائع لعاداته الطيبة هي «السُّنَّة أو سُنَّتي» أو سُنَّتِنا، ويشير التعبير الأخير إلى عادات الأنبياء بصفة عامة، وأصبح تعبير سنة النبي شائعاً بعد موت ﷺ.

أما بخصوص مدى «سنة محمد ﷺ» فيبدو أنها أكثر انتشاراً من سُنَّةِ الله. وفي حين تغطي سُنَّة النبي القوانين الإسلامية الأساسية التي نزلَ بها الوحيُ، فإن سنةَ الله تختص بسنن الوحي، وبالتالي فهي محددة بإطار ضيق، فضلاً عن هذا فسنة محمد تهتم بكافة التفاصيل فيما يختص بحياة الفرد، سواءً كانت دينية أو دنيوية، نزل بها وحي أو لم ينزل، ولهذا يكون من الخطأ أن تقرر أن القوانين القرآنية متضمَنة في سنة محمد ويجب قراءة القوانين القرآنية مع الحديث، وتسجيل سنة النبي ﷺ وربما تؤدي هذه الفكرة إلى الاعتقاد بأن القرآن أكثر حاجة إلى السنة من احتياج السنة إلى القرآن[2].

4 ـ السنة المحلية:

إن سُنَّةَ النَّبي ﷺ كانت معروفة بداية بالنسبة للصحابة، والسلف الذين عاشوا في المدينة، والمدن المجاورة حيث تنقل هؤلاء الصحابة في أقاليم مختلفة من الإمبراطورية الإسلامية، وحملوا معهم سُنَّة النَّبيِّ، وحينما ذهبوا واستقروا كان يستقبلهم المسلمون المتحمسون بترحابٍ عظيم، هؤلاء المسلمون الذين كانوا يتطلعون إلى معرفة المزيد والمزيد من سُنَّة النبيّ ﷺ، وأسَّسَ بعض حَفَظةِ السُّنَّة مدارس خاصة بهم، وكانوا يعاملون على أنهم المسؤولون عن سُنَّة النَّبي ﷺ وعرفوا باعتبارهم علماء. وقد تم إنشاء العديد من هذه المدارس في منتصف القرن الثاني الهجري، وكثيراً ما اختلف علماء هذه المدارس في مسائل فقهية، ويتباين تفسير كلمة «سُنَّة» من مدرسة إلى مدرسة واعتقد علماء شبه الجزيرة وفي أماكن كثيرة منها أن سنتهم فحسب هي التي تحظى بالتقدير باعتبارها تمثل

---

(1) الرد على سير الأوزاعي (24).

(2) سنن الدارمي (طبعة المدينة) (1: 117).

سنة النبي ﷺ الحقيقية، والواقع أن السنن المختلفة والتي اتبعت في أماكن كثيرة تبين أن التعبيرين: «والسنَّة عندنا، ومادة السنة» يُشيران إلى أنَّ هذه السُّنن كانت محلية أكثر من كونها سُنَّة المجتمع ككل، ولهذا سميت بالسنة الإقليمية.

والأئمة ذائعو الصيت في هذه الفترة المبكرة أمثال الإمام مالك، وأبي يوسف والأوزاعي استخدموا مصطلح «السنة» بمعنى السنة الإقليمية الخاصة بالمدينة، والعراق، والشام على التوالي.

1 ـ الإمام مالك:

استخدم الإمام مالك كلمة «سُنَّة» ليشير إلى العادات المنتشرة في المدينة ومَيَّزها عن الحديث لأنَّه رأى أن السُّنَّة أكثر مصداقيةً من الحديث[1]، فكثيراً ما أكَّد على الحديث المنقول بتدعيمه بأقوال السنة المنتشرة في المدينة، وفي حالة التعارض بين السنة والحديث. فهو يفضل السنة على الحديث، واستشهد لذلك بمثال، فالسنة التي بمقتضاها يُسمح بشرعية الحج بالتفويض سواءً كان الشخص الذي يُحج بالنيابة عنه حياً أم ميتاً[2]: فطبقاً لسنَّة أهل المدينة ذكر أنه لا يجوز أن يحج شخص نيابةً عن شخص آخر حي[3]، وعلى سبيل المثال أيضاً فطبقاً للحديث ـ المشي أمام الشخص أثناء الصلاة لا يجوز، ولكن طبقاً لسنة أهل المدينة يقول مالك: ليس هناك مكروه في فعل ذلك[4].

ونادراً ما اهتمَّ الإمام مالك بسُنَّةِ المدن الأخرى؛ لأنَّه كان يعتبر المدينة هي بيت السنة، وفي خطابه للإمام «الليث بن سعد» إمام مصر ضَرَبَ أمثلةً عديدة تؤيد وجهة نظره، والنقطة الأساسية التي يتمسك بها في ذلك: أنَّ أهلَ المدينة كانوا ملمين بسُنَّةِ الرسول ﷺ عن أهل المدن الأخرى.

ومما هو جدير بالذكر أن تفضيله لسُنَّة أهل المدينة، شاركهُ فيها إجْماع علماء المدينة، ولم يكن اجتهاداً شخصياً منه.

---

(1) للتفريق بين «السُّنَّة»، و«الحديث» انظر في الباب الثاني تحت عنوان «السنة والحديث».

(2) الموطأ (ط. ديوبند)، ص (138).

(3) حجج أهل المدينة، ص (162).

(4) الموطأ (ط. ديوبند)، ص (152).

وعلى سبيل المثال كانت أول ملاحظة له، أن البضائع التجارية الخاصة بأهل الكتاب والمجوس يجب ألا تفرض عليها «الجزية» لأنها كانت سنة في الماضي «مضت بذلك السنة»[1] وبرَّر قبوله هذا بقوله: «هذا ما وجدته من سُنّةِ علماء مدينتي» وكلمة «سُنَّة» التي استخدمها مالك هنا تشير بوضوح إلى السنة التي انتشرت في المدينة ووافقَ عليها عُلماء المدينة.

وفي موضع آخر قال مالك: إنَّ الزكاة فَرْضٌ على الرجل الذي يملك عشرين ديناراً، وأضاف إنها سُنَّة لم يختلف عليها علماء المدينة[2].

واستشهد الشافعي بنصوص مالك، حيث استخدم مصطلح «السنة» بنفس معنى «سُنَّة أهْلِ المدينة» ويقول الشافعي: ألا تتفق مع من تحادثه على أن مالكاً لم يقل «هذه سنتنا» إلا إذا وافق كافة علماء المدينة على هذه المسألة[3].

ونحن نجد عدداً من العبارات في موطأ مالك «تشير إلى السنن المختلفة الخاصة بأهل المدينة، فالخطة العادية التي اتبعها مالك في هذا الكتاب أنه أولاً نَقَل سُنناً معيَّنة، وأضاف سلسلة من المصطلحات التي تفيد ضمنا السنن السائدة في المدينة، والمصطلح الذي استخدم عادة لنقل هذا المعنى «الأمر عندنا»[4]، «الأمر الذي لا اختلاف فيه عندنا»[5] «السنة عندنا»[6]، «مضت السنة بذلك»[7]، «السنة التي لا اختيار فيها عندنا»[8].

ومن الواضح أن هذه التعبيرات وتعبيرات أخرى كثيرة تعني أن سُنَّة أهل المدينة في كثير من الحالات تختلف عن السنن المنقولة، وسنة أهل المدينة كانت مفضلة عنده عن السنن المنقولة، وتعني أيضاً أن سنة منطقة معينة تختلف عن سنة المنطقة الأخرى، والسُّنَّة

---

(1) الموطأ بشرح الزرقاني (2: 143).

(2) الموطأ (1: 280).

(3) الرسالة، ص (142).

(4) الموطأ بشرح الزرقاني (2: 107، 123).

(5) الموطأ بشرح الزرقاني (2: 101).

(6) الموطأ بشرح الزرقاني (2: 105، 124).

(7) الموطأ بشرح الزرقاني (2: 141، 143).

(8) الموطأ بشرح الزرقاني (2: 97).

في العبارات السابقة تشير إلى سنة أهل المدينة، وتبرهن أيضاً على أنَّ السُّنَّة التي تناولها مالك كانت محددة المعنى، وعليه فيجوز لنا أن نسمي هذه السنة «سنة محلية».

2 ـ أبو يوسف:

أبو يوسف هو أحد الأئمة المعاصرين لمالك، وقد سألَنَا أنْ «نجعل القرآن والسنة المعروفة» إماماً وقائداً[1]، ونصيحته بجعلْ القرآن إمامنا يبدو مفهوماً تمام الفهم، ولكن ماذا تعني السُّنَّة المعروفة، أو المعترف بها هنا؟ من الواضح أنها تعني أن سنن المجتمع المسلم سواءً كان في العراق ـ موطن أبي يوسف ـ أو خارجها: شرْعيَّةً حقيقة بالمحاكاة، ومن هنا يتضح أن سنة أبي يوسف لا تحاكي سنة مالك، أو أنها أكثر اتساعاً.

ولكن إذا نظرنا من منظورٍ تاريخي إلى سنة أبي يوسف نجد أنها لا تختلف كثيراً عن السنة الإقليمية التي انتهجها مالك، ونحن نعرف أنه في عصر أبي يوسف انتشر كثير من المدارس الفكرية المختلفة في أماكن كثيرة، وجميع هذه المدارس تدعي أن منهجها هو المنهج الصادق ولهذا فمصطلح «السنة المعروفة» يعني السُّنَّة السائدة في موطنه: العراق، وهذا يجعلنا نضعه في نفس خط الإمام مالك.

وقد أحدث أبو يوسف أيضاً تعبيرات «سُنَّة المتعلمين» «وسُنَّة قادة المسلمين» مشيراً إلى سُنَّة مدينته[2].

3 ـ الأوزاعي:

استخدم الأوزاعي ـ عالم الشام مصطلح «سُنَّة» بالمعنى نفسه الذي استخدمه معاصروه وهم مالك وأبو يوسف، واستخدم تعبير «إنها سنة المسلمين في الماضي»[3].

ويبدو أنَّ السنة التي أشار إليها الأوزاعي هي استمرار السنة النبوية كما مارسها المجتمع الإسلامي في الأجزاء المختلفة من الإمبراطورية الإسلامية، ولكن في الواقع ما يعنيه بكلمة سنة هي السنة السائدة في المنطقة التي يعيش فيها، وعندما يقول: «هذا رأي العلم»[4] يقصدُ: هذا رأي الأئمة في مدينته.

---

(1) حجة الله البالغة (32).

(2) حجة الله البالغة (41).

(3) حجة الله البالغة (53، 76).

(4) حجة الله البالغة ص (49).

جرت مناظرة بين الأوزاعي وأبي يوسف عن توزيع حصة الغنائم على الفرسان في الحرب توضح أن السنة عند الأوزاعي كانت السنة السائدة في الشام، والأوزاعي في هذه المناظرة يقول: «إن القادة المسلمين في الماضي لم يعطوا الفرسان نصيبهم من الغنائم. وفَنَّد أبو يوسف رأي الأوزاعي وعلق قائلاً: إنَّ رأي الأوزاعي هو رأي بعض علماء الشام الذين لا يعرفون تأدية الوضوء بشكل صحيح، ولا يستطيعون تلاوة صيغة التشهد بصورة جيدة، ولا يتقنون مبادئ الفقه»[1].

وبعد هذا الهجوم العنيف من أبي يوسف على آراء الأوزاعي يتضح أن «السُّنَّة» التي أشار إليها الأوزاعي كانت موجودة ومعروفة في العراق، لأنها لو كانت في منطقة أخرى لأيد أبو يوسف رأي الأوزاعي وهذا بدوره يبرهن على أن سُنَّة الأوزاعي تشير إلى السنة السائدة في الشام.

وفي ضوء الأمثلة التي استشهدنا بها فيما سبق يمكن أن نقول بثقة واطمئنان: إنَّ الأئمة المشهورين في القرن الثاني من الهجرة استخدموا مصطلح «سُنَّة» بمعنى السنة الإقليمية.

5 ـ سنة المجتمع والسنة الإسلامية:

وسوف نتناول في «السنة الإسلامية» السنن الدينية الراسخة التي كانت تتبع عادة في الحياة الدينية للمجتمع المسلم، أو كانت تعد مرغوبة من المسلمين الأتقياء، ويمكن أن نضع تحت عبارة «السنن المرغوبة» سنن النبي ﷺ وسنن الخلفاء الراشدين التي تعتني بكل صغيرة وكبيرة في حياتهم اليومية، مثل وسائل وطرق المأكل والمشرب، والعلاقات الاجتماعية.

لقد اتسع مفهوم «السنة» بانتشار الإسلام؛ ففي البداية كان قاصراً على سنة محمد ﷺ، والتي كانت لا تتضمن القوانين الجديدة التي أدخلها بل تشمل أيضاً بعض العادات التي كانت سائدة في الفترة السابقة، وبعد موت النبي ﷺ، أصبحت تتضمن أيضاً سنن الصحابة[2]، والخلفاء، وبعد ذلك جاء اجتهاد الخلفاء الراشدين والذي اعتبر سنة وجزءاً

---

(1) حجة الله البالغة (20 ـ 21).

(2) Guillaume: the Traditions of Islam (P: 12).

لا يتجزأ من العادات الدينية للمسلمين، وأخيراً أصبحت «السنن» التي مارسها الخلفاء الأمويون مُتَضَّمنَةً في منظور السنة الإسلامية.

إن السنة الإسلامية في بادئ الأمر كانت لا تعدو عن كونها تعاليم النبي ﷺ وعاداته النموذجية، ولم تكن سنة النبي ﷺ بديلاً شاملاً للسنن العرفية؛ فكثير من السنن القديمة للمجتمع دخلت الإسلام، وفي الواقع لم يكن من السهل في هذه الفترة من التاريخ أن يحرم الإسلام كل شيء كان مباحاً قبل ظهور الإسلام[1]، فالرسول ﷺ نفسه اتبع لفترة من الوقت لبعض أعمال الديانة الموسوية[2]، وطلب من الصحابة أن يتبعوا سنة اليهود والمسيحيين في المسائل التي لا يوجد لها أحكام في الشريعة الإسلامية.

إن هذه السنة الإسلامية لم تبعد كلية عن عادات العرب والتي يمكن رؤيتها بوضوح في احتفالات الحج ومراسمه فنحن نلاحظ أنه لا يوجد خلاف كبير بين الحج الوثني والحج في الإسلام. فشعائر الطواف حول الكعبة[3]، وتقبيل الحجر الأسود[4]، والأضحية[5]، ورمي الجمرات[6]، والسعي بين الصفا والمروة[7]، وحلق الرأس[8]، كانت من بين الشعائر الكثيرة التي مارسها الحجاج الوثنيون والتي تضمنها الحج في الإسلام.

وفضلاً عن شعائر الحج وجد هناك الكثير من المعتقدات والعادات العربية قبل الإسلام دخلت الدين الإسلامي، فبالنسبة للاعتقاد، اعتقد البدو في البعث[9]، وفي الحساب[10]، وهذان المعتقدان مبدآن أساسيان من مبادئ الدعوة الإسلامية، ومن بين

---

(1) يمكن القول بأن هذه قواعد أساسية في القرآن الكريم الذي يوضح ذلك كما في (النساء: 24)، و(الأنعام: 120).

(2) مثل التوجه لبيت المقدس حتى جاء الأمر بالتوجه إلى الكعبة. النهاية (1: 329).

(3) الأصنام: (19).

(4) المحبر: (311).

(5) الأصنام: (20).

(6) المحبر: (319).

(7) المحبر: (311).

(8) الأصنام: (48).

(9) المحبر: (322).

(10) المحبر: (322).

السنن الإسلامية يمكن أن نحصي تغسيل الميت[1]، وتكفينه في كفن[2]، ومراسم الجنازة[3]، ودفن الميت في قبر[4].

وذكر ابن حبيب عشر سنن[5] تتعلق بالطهارة التي كانت شائعة في العصور الجاهلية ودخلت هذه السنن الإسلام، وتم تصنيفها على أنها فرض، أو سنة مستحبة بواسطة الأئمة المتأخرين.

إنَّ جزءاً كبيراً من هذه السنن مثل الأحكام الشخصية فيما يتعلق بالزواج[6]، والطلاق[7]، والميراث[8]... إلخ دخلت الشريعة الإسلامية رغم أنها كانت سناً من حقبة الجاهلية.

وقد دخلت هذه السنن الإسلام سواء بصورتها الحقيقية أو بإدخال بعض التعديل الطفيف. ولهذا فالسنة الإسلامية في حياة الرسول ﷺ تكونت من عادات غير إسلامية واحتفظ بها الإسلام بالإضافة إلى السنة الجديدة التي أدخلها النبي ﷺ وسار عليها المجتمع.

فالسنة الإسلامية كانت في الواقع سناً إسلامية راسخة للمجتمع الإسلامي. وكان يعبر عنها بعبارات مثل: «جرت به السُّنَّة» «مضت به السنة» وكثير من المصطلحات الأخرى[9].

والأمثلة التالية توضح استخدام هذه التعبيرات بهذا المعنى السابق:

---

(1) المحبر: (319).

(2) المحبر: (321).

(3) المحبر: (321).

(4) المحبر: (321).

(5) المحبر: (329)، وهذه السنن العشرة هي: المضمضة، والاستنشاق، والسواك، وتخليل اللحية، وأخذ الشارب، والختان، وحلق العانة، ونتف الإبط، وتقليم الأظافر، والاستنجاء.

(6) المحبر: (310).

(7) المحبر: (309).

(8) المحبر: (236).

(9) السيرة (692 ـ 693)، الأم (7: 306)، الأموال (612).

أ ـ عندما سئل عن القواعد المنظمة بقبول الجزية من الوثنيين ذكر أن الزُّهْري، قال «إنها كانت سنة» «مضت السنة» أن نقبل هذه الجزية من المسيحيين واليهود العرب[1].

فصيغة «مضت السُّنَّة» في هذا النص تبين بوضوح أن هذه السنة مقبولة عموماً ومعروفة في المجتمع الإسلامي؛ ولهذا نسميها «السنة الإسلامية».

ب ـ وعند مناقشة شعائر محددة في الحج ذكر ابن هشام أنه عندما أدّى النبي ﷺ حجَّةَ الوداع، تمسك بها كشعيرة من الشعائر، وبذلك أصبحت سنة معروفة في المجتمع الإسلامي[2] «مضت السنة» فهذا التعبير يشير هنا إلى سنة المسلمين عموماً، ولهذا يمكن أن نسميها «سنة إسلامية».

جـ ـ وبالإشارة إلى السنة التي طبقها النبي ﷺ في توزيع غنائم بني قريظة، يقول ابن إسحاق:

ظلت هذه السنة سنة معتادة في المجتمع الإسلامي فيما يختص بالغزوات «مضت السنة في الغزوات»[3].

ويشير الشافعي إلى هذا المثال ويقول إنَّ أتباع الأوزاعي يقولون: «أنها كانت سنة معروفة» «وبهذا مضت السنة» ولم يوافق المسلمون على ذلك[4]، وهذه آخر ملاحظة لأتباع الأوزاعي كما نقلها الشافعي وتبين بوضوح أن العبارة السابقة توضح أنها سنة إسلامية.

وفي الواقع إن عصر الصحابة بعد النبي ﷺ شَهِدَ تغيراً حقيقياً في معنى السنة، ففي هذه الفترة اتَّسَعَ مفهوم السُّنَّة، ولم يشتمل على العادات التي كانت سائدة في الجاهلية، ولا سنة النبي ﷺ فحسب، بل أضيف إليها سلوك الصحابة وتصرفاتهم، وبخاصة الخلفاء الراشدين.

لقد كان الصحابة حريصين أشدَّ الحرص على الحفاظ على سُنَّة النبي ﷺ وإخلاصهم لها، ورتَّبوا حياتهم وِفْقاً لها، واعتبر الناس هؤلاء الصحابة أوصياء على سُنَّة

---

(1) الأموال (26).

(2) السيرة: (789).

(3) السيرة: (692 ـ 693).

(4) الأم (7: 306).

النبي ﷺ وحازوا ثقة المجتمع بسبب حبهم لسنَّةِ النبي ﷺ، وبسبب تماثل أعمالهم في سنة المصطفى ﷺ.

وكانوا يعدون حاملين مخلصين للسنة، وهم مخلصون بحقّ لأنهم كانوا حريصين متشددين في قبول الأحاديث التي يزعم أصحابها أنها انبعثت من الرسول ﷺ، وكانت المعلومات التي يحصلون عليها توضح تحت الاختبار والتحقيق، ثم تقبل إذا كانت صادقة.

وعلى سبيل المثال وافق أبو بكر أن يُعطيَ من ميراث شخص متوفٍ سُدْسَ التركة للجدة، عندما اقتنع أنَّ الرسول ﷺ فعل ذلك[1].

وتمسَّكَ عمر بنفس الاتجاه بالنسبة لقبول السنن الغير المعروفة لدى البعض، وذُكر أن أبا موسى الأشعري زار عمر بن الخطاب وطرق بابه ثلاث مرات، ولما لم يردّ عليه أحد بالداخل، قرر أن يرجع، ثم ظهر عمر وراءه عائداً فاستدعاه وسأله عن سبب رجوعه، فردَّ عليه أبو موسى أنه سمع الرسول ﷺ يقول: «إذا طرقَ شخصٌ باب شخصٍ ما ثلاث مرات، ولم يردّ عليه أحدٌ، وجبَ عليه ألا ينتظر أكثر من هذا».

وهذا الحديث الذي استشهدَ به أبو موسى لم يكن يعرفه عمر، ولكي يحقق ذلك وخاصة لأنها تشمل كلمة «سنة النبي ﷺ» هدَّدَ بعقاب أبي موسى لو فشل في أن يؤكد بشاهدٍ هذا الحديث.

ولهذا أتى أبو موسى بشاهدٍ سمعَ الحديث بأذنه ليؤكد أنه سمع الحديث، وحينئذٍ أصبح الحديث صادقاً صحيحاً[2].

وعلى سبيل المثال أيضاً، لم يكن الإمام عليّ يقبل من أحد حديثاً إلا بعد أن يحلّفه اليمين[3].

ومن هنا نجد أنَّ الخلفاء كانت لهم وسائلهم في بحث «السنن المنقولة»، وكانوا يترددون في قبول الحديث حتى يُدرَس بدقة، ويوافَقْ عليه بالإجماع.

وإذا وضعنا في الاعتبار هذا الحرص المتناهي للخلفاء الراشدين تُجاه الحفاظ على سُنَّة النبي ﷺ فقد سلم المسلمون الأوائل بأن سنن الصحابة مطابقة ـ بالضرورة ـ لسنة النبي ﷺ.

---

(1) معرفة علوم الحديث للحاكم (15).

(2) تذكرة الحفاظ للذهبي (1: 6)، صحيح البخاري (4: 438) في كتاب الاعتصام بالسنة.

(3) معرفة علوم الحديث للحاكم (15).

ولهذا السبب فمن المحتمل أنه في هذا العصر البعيد كان كافياً أن تنسب سُنَّة معينة إلى الصحابة الأوفياء، على أساس أنها مرتبطة بسنة النبي ﷺ، وبهذه الطريقة فحتى الآراء الشخصية (المبنية على القرآن والسنة) في هذا المسار أصبحت إجماعاً للمجتمع، وكونت ما عرف «بالسنة الإسلامية»[1].

وبالنسبة لهذا النوع من «السنة» يشير الإمام علي في هذه العبارة إلى «أنَّ رسولَ الله ﷺ اعتاد أن يحكم بأربعين جلدة (عقوبة شارب الخمر)» «وأن أبا بكر حكم بأربعين جَلدة أيضاً، وحكم عمر بثمانين جلدة، وعلق عليٌّ قائلاً: «كل هذا سُنَّة»[2].

وتعليق الإمام عليّ هذا غاية في الدلالة (على ما ذهبنا إليه) لأنه يوضح أنَّ سُنن الصحابة شكلت «السنة الإسلامية».

ويبدو أن حسن بن محمد بن علي بن أبي طالب أشارَ إلى «السُّنَّة الإسلامية» عندما قال: «من تبرأ من أبي بكر، وعمر؛ فقد تَبَرَّأ بحقٍّ من السُّنة»[3].

إنَّ الدليل على أنَّ سُنَّة الصحابة شكلت سُنَّة الإسلام هذا البيان الذي قاله عمر معلقاً على قانون تعيين الخلفاء، فقد ذكر أنه قال «لو عينت خليفةً ستكون سُنَّةً، ولو لم أعين خليفةً ستكون سُنَّةً أيضاً، فالرسول ﷺ توفى دون أن يعين خليفةً، وأبو بكر توفي وعَيَّن خليفةً» وبمعنى آخر: إنَّ لديه سابقة في السُّنَّة[4].

ونلاحظ في القول السابق أنَّ سُنَّةَ أبي بكر وصفَها عمر بأنها سُنَّة، وهذا يؤكد أنَّ السُّنَّة الإسلامية تكوَّنت من سُنَّةِ النبي ﷺ والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم.

ولعلَّ السبب في دخول سُنَّة الخلفاء الإسلام ومساهمتها في توسيع منظور «السنة الإسلامية» هو حقيقة أنَّ المجتمع كان على ثِقَة تامة بأن الخلفاء مخلصون بحق للإسلام، وأنهم قد تمسَّكوا بسنة النبي ﷺ، ومع هذا فعندما أصدر هؤلاء الخلفاء أحكاماً شرعيةً في قضايا معينة مستجدة عن السنة المعروفة، رفض الناسُ قبولها حتى اقتنعوا أن هذا التغيير صدر عن إيمانٍ مطلق ومطابق لروح سُنَّةِ النبي ﷺ.

---

(1) نظرات عامة في تاريخ الفقه الإسلامي لعلي حسن عبد القادر، ص (116).

(2) الخراج (99)، كشاف مصطلحات الفنون (1: 707).

(3) مشاهير علماء الأمصار، ص (62)، الترجمة رقم (421).

(4) طبقات ابن سعد (3: 1: 248)، وتاريخ الطبري (ط. أوربة)، ص (3: 241).

ولنأخذ مثالاً على ذلك وليكن بيع أمهات العبيد (أمهات الأولاد) فقد كان مسموحاً به في عصر النبي ﷺ وعندما جاء عمر إلى الحكم، مارسَ حقَّهُ في الاجتهاد، وحرم هذه الصفقات، وهو بهذه الطريقة غيَّر سُنَّةَ النبي ﷺ وأقامَ سُنَّةً جديدة، ولقيَ تصرفه هذا قبولاً واستحساناً من المجتمع، لأن الغرض منه كان نبيلاً، وهو بهذا قد اتخذ خُطوةً تجاه إلغاء العبودية، والتي كانت تُعدُّ واحدةً من الأهدافِ الرئيسة للنبي ﷺ.

وعليه. فهذا التغيير كان مطابقاً لروح سُنَّةِ النبي ﷺ، وكان محل قبول من المجتمع وأدخل في السنة الإسلامية.

أما السنن التي أدخلها خلفاء آخرون فقد وسَّعت أيضاً من منظور السنة، بهذه الوسيلة وكبرت مجالها، فالخليفة عثمان مثلاً أدخل النداء الثالث في صلاة الجمعة، والذي أصبحت الآن جزءاً من السنة الإسلامية[1].

في حين أن الخليفة عمر وضع أوليات مثل فرض ثمانين جلدة عقوبة لمحتسي الخمر، وتشريعه بأن الحلف بالطلاق ثلاث مرات في مجلس واحدٍ، معادل للطلاق الذي يحلفه الشخص على ثلاث مرار.

كل هذا يوضح أنَّ السُّنَّة الإسلامية هي امتداد للسُّنَّة المحمدية.

ولنأخذ مثلاً آخر: فقد ذكر أنه حتى عصر الخليفة الأموي مروان بن الحكم كانت خطبة العيدين تتم بعد الصلاة، وعندما لاحظ هذا الخليفة أن كثيراً من الناس يترك المسجد دون الاستماع إلى الخطبة أدخل نظاماً جديداً؛ حيثُ بدأ بإلقاء الخطبة قبل الصلاة[2]، وأدخل هذه السُّنَّة، فالسنة القديمة الخاصة بإلقاء الخُطْبة بعد الصلاة اختفت بعد دخول السنة الجديدة[3]، ولهذا فالسنة الإسلامية تندمج معها السنن الجديدة.

---

(1) الموطأ (ط. لكنو، وديوبند)، ص (138).

(2) كتاب الآثار لأبي يوسف (59).

(3) ليس الأمر على ذلك الآن، ويبدو أن ما فعله مروان بن الحكم لم يستمر إلا قليلاً ولعل إجماع المسلمين لم يتقبل سنته تلك! (المترجم).

والسُّنَّة تعني عمل: «أهل السنة والجماعة» وعلى الرغم من أنها استخدمت ضد الشيعة ـ وهم أتباع علي ـ وتشير في الواقع إلى أتباع السنة الإسلامية، ولهذا فأهل السُّنَّة المقصود بهم بوجه عام المسلمون التقاة الذين التزموا بسنن النبي ﷺ[1].

وتستخدم اليوم لتشير إلى أحد المذاهب الأربعة وهم: الحنفية والشافعية، والمالكية والحنابلة، وهم في الواقع أتباع السنة الإسلامية.

(6) السُّنَّة التشريعية ـ سُنَّة التشريع الإسلامي:

لقد اكتسبت السنة معنى فنياً في الأدب الفقهي، والمعنى التجريدي لها يعني تصرفاً محموداً، ويلاحظ أن هذا المعنى يتضمن المدح وليس الذم، واستخدم هذا اللفظ نقيضاً للكلمة فرض أو واجب، والذي يعني الإلزام[2].

وقسم الفقهاء المسلمون العبادات إلى خمس فئات:

1 ـ الفرض أو الواجب ويعني به الإلزام.

2 ـ السُّنَّة ـ النفل، والمستحب وهو ما يقدَّر فعله.

3 ـ الجائز أو المباح ويعني المصرح به.

4 ـ المكروه ونعني به غير المفضل أو غير الموافق عليه.

5 ـ الحرام ونعني به الممنوع.

وكما هو واضح من التصنيف السابق، فإن وقوع السُّنة في الفئة الثانية غير ذات أهمية حيث إنها تتضمن السنن الدينية غير الملزمة مثل: الأضحية[3]، والعمرة[4]، والغسل أيام الجمعة[5]، وهذه السُّنَّة التشريعية قسمت نفسها إلى أقسام كثيرة مثل:

---

(1) كتاب «المحمديون» تأليف «جب» صفحة (74)، والفكر الإسلامي تأليف (وات) ص (80، 90). من المعروف أن المسلمين ينتسبون إلى الإسلام فهم مسلمون لا محمديون. (المترجم).

(2) تهذيب الأسماء واللغات (2: 1: 156)، رد المحتار (1: 72) للتفريق بين «السُّنة والواجب»، وبين «سني وشيعي» انظر الكافي (1: 71)، وإزالة الخيفة، ص (2: 141).

(3) الموطأ (487).

(4) الموطأ (347)، والحجج (143).

(5) الكفاية (592).

(أ) سنة الهُدى، أو السنة العادية والسنة المؤكدة بمعنى أن تارك هذه السنة لا يستحق عقاباً أو لوماً مثل إهمال صلاة تحية المسجد[1].

(ب) سنن الزوائد وهي سنة لا يستحق تاركها لوماً[2]، وهذا النوع من السنة يركز على عادات النبي ﷺ في الملبس، والمسكن.

وفي هذا المجال يجب أن نشير إلى أنَّه رغم أنَّ هذه المفاهيم التي تناولناها سابقاً وجدت في وقت مبكر من الإسلام، فإنَّ صياغة المفاهيم الفنية الأكثر دقةً وتحديداً لم تظهر إلا بعد ذلك بكثير.

يقول شاخت[3] إن هذه التصنيفات لم تكن معروفة عند الشافعي، ولا عند من سَبَقَهُ، فقد استخدمت تعبيرات بديلة في الفترة الأولى من الإسلام للتعبير عن المعاني التي تؤكد هذه المفاهيم، فقد استخدمت عبارات وجمل طويلة للذي يمكن أن نعبر عنه في وقت لاحق بكلمة أو اثنتين.

* * *

(1) نظرات عامة في تاريخ الفقه (120)، كشاف اصطلاحات الفنون (704)، وصحيح مسلم (1: 249).

(2) نفس المصادر في الحاشية السابقة.

(3) شاخت: نشأة الشريعة (13).